القسم الثالث

آسيا الشرقية

obeikandl.com

obeikandl.com

الكتاب الاول

آسيا الشرقية
(من ١٢٠٠ الى ٣٠٠ ق.م)

تقاسم قطران في العصور القديمة رسالة اخضاع آسيا ، قطران يملكان قوى فعالة جبارة ، ولكن لكل منهما أهواء وأساليب على طرفي نقيض : انهما الهند والصين . ولا حدّ لعوامل التباين بينهما من حيث الشكل الجغرافي والأهداف والتطور . ومع أن كلاً منهما اتبع طرقه الخاصة فقد بقيا على اتصال لا بل تلاقيا مراراً — كما حصل في اندونيسيا — ولكن اختلفت أساليب توسعها حتى استحال على المرء ان يقارن بينهما او يدرس في وقت واحد مراحل حضارتها . لذا سنعمد ، حباً بالإيضاح ، الى تحديد مدى كل منهما ، والتدقيق في خصائصها الأساسية .

ان للهند[1] قوة تحضيرية تنبع كما يبدو من طبيعة أرضها . وتفضل الهند ان تستعمر سلماً ، مع أنها عرفت حوادث دامية في مختلف مراحل تاريخها . وان الشبه الذي يظهر منذ طور ما قبل التاريخ بين الهند وبلاد آسيا الجنوبية الشرقية يستند في العصور التاريخية الى تعامل تجاري اتسع مداه مع الايام ، وهجرة ترايدت فأنتجت من ثم أجيال خلاسيين ، ودعاوة دينية لمتها احترام الغير وسداها الذي سامح . وأخيراً هناك تأسيس « ممالك » مستقلة حسب النظم الهندية ولكن بشكل يتفق مع المحيط الذي قامت عليه . وهكذا فقد تدخلت الهند — ولكن على درجات متفاوتة — في برمانيا ، وفي معظم أجزاء الهند الصينية وفي جزر سومطرا وجافا وبالي الهندونيسية ، لا بل حتى في السيليب وبورنيو . وفرضت الهند نفسها خاصة بتفوق ثقافتها

(١) اننا نشكر للسفارة الهندية الجليلة في بيروت حسن التفاتها لمساعدتنا علميا على نقل الاسماء الهندية التي وردت في هذا المؤلف الى اللغة العربية نقلا دقيقا من حيث اللفظ والكتابة . ونعتنمها سانحة سعيدة لنشيد بلطف أحد امناء سرها السيد راج لما أبداه نحونا من عطف . الناشر

ولكن عجزت عن الاستمرار طويلاً أمام كر التقاليد الوطنية المحلية التي عرفت حياة جديدة .

واختلفت أساليب الصين اختلافاً كلياً : فهي تخضع البلاد حرباً و تفرض عليها قوانينهـــا وعوائدها وديانتها ولغتها وكتابتها . وليست السيطرة بعرف الصين حصيلة تدخل وتسلسل بل نتيجة غزو كامل تفرض معه ، وبالعنف ، مجموعة من النظم متناسقة تتوافق مع تقاليد وأخلاق الشعب المغلوب على أمره. ولم يجبر الذين أخذوا بعظمتها وبأسها وأرادوا حذو حذوها على تبني حروبها فقط بل ايضاً على تقليد نظمها وأساليب ثقافتها .

ولكن هناك مع هذا مناطق تقابلت فيها الصين والهند وتشابكت فيها آثار حضـــارتها : كالهند الصينية ، ويدل بوضوح هـــذا الاسم المركب على اقتسام البلدين مناطق نفوذ هناك ، والتركستان الصيني الذي قدر له تاريخياً ان يبقى دوماً ممر عبور ، والنيبـــال حيث تتشابك الثقافتان بشكل يثير العجب ، والتيبت التي تستمد عناصرها الدينية والفنية من هذه الحضـــارة وتلك . وهناك مناطق عدة تبعد كثيراً او قليلاً عن حدود البلدين تثبت تفوق حضارة الهند او الصين فيهـــا إن دقق المرء في خصائصها . وغدت الديانة البوذية أقوى عناصر هذا التلاقي ، وقد ولدت في الهند في القرن السادس ق. م. وأصبحت من أهم عوامل التوسع الهندي . وقد اقتبلت الصين البوذية في القرون التي تلت العهد المسيحي .

ولم تنفصم دون شك عرى العلاقات بين آسيا الشرقية والعرب طوال هذه الفترة التي حددوها اعتباطاً من سنة ١٢٠٠ الى سنة ٣٠٠ ق. م. ولكن آثار هذه العلاقات هي أشد غموضاً وأقل عدداً من آثار الفترة السابقة حيث سجلنا تارة تسلل حضارة بلاد الرافدين الى زميلتها « حضارة الهندوس » وطوراً علاقات الصين في طورها السابق للتاريخ مع اوروبا السرقية .

الفصل الأول

الهنـــد

حصائص الحصارة الهدية الاساسية

قـد لا يقدرون في الغرب أهمية الحضارة الهندية حق قدرها . فهي رأت ديانتـين من أهم ديانات العالم تترعرعان على أرضها : البرهمانية والبوذية . ولعبت الهند في آسيا الدور الذي قامت به بلاد اليونان في أوروبا . ونسبة الى الحضارات القديمة التي تعد الحضارة الهندية جزءاً منها اذنشأت في زمن يحددونه تقريباً ما بين سنة ١٥٠٠ وسنة ٨٠٠ ق . م . فإن لهـــذه الحضارة صفة استثنائية اذ هي لا تزال حية حتى أيامنا دون ان تتخلى عن خصائصها الاساسية التي عرفت بها منذ أوائلها التاريخية ، ان « المغامرة الهندية تتتابع أمام بصرنا اذ هي لا تستند فقط بكليتها الى المـــاضي السحيق ، كأمحاد مصر وبابل الميتة » (ب . ميل P. Melle) . ولهذه الديمومة بعض الاسباب التي يجدر تحديدها والتي بدونها يصعب فهم تطور الهند القديم و تجددها المستمر على مر القرون .

هناك ثلاث صفات رئيسية تحدد الهند وتفسر نوعاً ما هـــذه الديمومة : فالهند تحب التقليد وهذا ما يسمح انتقال العادات من السلف الى الخلف دون تحوير ؛ وهي تصبو نحو الوحدة مع ان التعقيد والتناقض هما من مقوماتها ؛ وهي تهوى التشريع والتصنيف والتقسيم ، وهـذه عوامل تهيب بها الى اعتبار أعمال كثيرة تبدو شديدة الاختلاف كأنها أمور طقسية مما يخلق بينها مـن نم تجانساً أصيلاً . ولم تظهر هذه الخصائص بمثل هذا الوضوح منذ بدء تكوين الحضارة الهندية . ولكننا نلاحظ تكوينها رويداً رويـــداً منذ عهد قديم ، ونشاهد تطورها بصورة حتمية نحو القصد الذي يوافقون عليه في زمن لاحق ، لا بل نراها تتحد اتحـــاداً وثيقاً مع مجمل العناصر الثقافية ، حتى انه يصعب جداً تحديد زمن ظهورها ومراحل تطورها .

ان للتقاليد في الهنـــد قوة عظمى يصعب على رجال الغرب ان يدركوا مداها . وهكذا فإن النصوص الأدبية التي ترتكز عليها النظريات الهندية قـد أُلفت دون شك منذ عهد قديم جداً ، وبقوا يتوارثونها بصورة شفوية مدة يعجب المرء لطولها قبل ان توضع كتابة . وان جرى في

هذا المجال بعض التحوير، فانه يماثل دون ريبة التحوير الذي تعودنا رؤيته في مضمار الفن الهندي أي أنه يظهر رويداً رويداً ، وقد حور شيئاً فشيئاً الموضوع الاولي ، ولكنه أبقى طوال آلاف من السنين على كنه الموضوع الأساسي .

أما اتجـاه الهند نحو الوحدة فانه ينمو مع الزمن . ويفقه الفكر الهندي بدقة وسرعة صفة الكثرة والتعدد التي تشمل كل شيء . ولكن بدل ان يتنكر لها او يحولها الى مجار اخرى بقصد اذابتها فانه يكتفي بملاحظة نتائجها وكتابة بيـان بها . وهو يجد بين أجزاء هذه الكثرة عروة وثقى : أي الوحدة الإلهية . وهو يفسر هذه الكثرة بأنها تعابير مختلفة لنفس المبدإ الموحد . لذا سعى طوال القرون ان يصنف كثرة المظاهر في فئات محددة المعـالم تصبح كلها متماثلة في الاصل. هذه هي حالة الزون الهندي يدور سكانه الإلهيون الذين لا حصر لهم، في فلك بعض الآلهة الكبار ويصبحون من ثم تعابير مختلفـــة عنهم ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الآلهـة ليسوا إلا تجسيداً للكائن الأوحد .

ويستند طبعاً هذا الاتجاه نحو الوحدة على وجوب حصر كل المجتمع الإلهي والانساني ضمن القوانين. وخير مثال في هذا المضمار هو وجود الطبقات ، وهذا مظهر اجتماعي يختص بالهنـد ، لا سيما في الشكل الذي يرتديه : فالكلمة فرنا Varna ، أي « اللون » تدل بوضوح على المشكلة الاجتماعية التي يستند اليها التقسيم الطبقي والذي كان يقـابل الغزاة المنتسبين الى الجنس الابيض والمواطنين الأصليين ذوي اللون المشبع . وقد طبق أولاً هذا المبدأ ، في مراحل التطور التـاريخي ، على فئتين من الأشخاص ، هما طبقة رجال الكهنوت ورجال الحرب العلمـانيين . ثم طبقوه على فئة ثالثة — فئة « الرجال الأحرار » — وعلى فئة رابعة — فئة « الفلاحين » — وتشعب أخيراً هذا المبدأ على أساس المهنة او الوظيفة ، وذلك بصورة حصرت تدريجاً مع الزمن حتى اعتبر الذين لم يصنفوا في طبقة ما بسبب « دنسهم » المفترض كمنبوذين . وان كان يبدو بأنهم لم يضعوا تدابير في غاية الشدة في بدء الديانة الهندية بين أفراد الطبقات النبيلة ، وإن سمحوا فيما بعد بالتزاوج بين أفراد ينتمون الى فئات مختلفة ، نشهد مع هذا اتساع ذاك المذهب حتى غدا تشريعاً جامعاً شمل مختلف تعـاليم ما وراء الطبيعة والسنن الكونية . ونستطيع ان نتخذ أمثلة على وجهة النظر هذه من مختلف مرافق الحياة ، نسرد مثلاً مجال الاشارات « المتكلمة » (مدرا ، هستا ، أساما الخ *Mudrâ, Hasta, Asana*) الذي يثبت لنا هذا التصنيف المسند الى الفنون الطقسية . انها اشارات طقسية عندما يقومون بها أثناء تقدمة الذبائح ، وتستمر على صفتهـا هذا إن نفذت أثناء الرقص او على خشبة الملهى ، او في فن الرسم الإلهي ، او في المواضيع المنقوشة والملونة . ان الطقس الديني يشمل بصورة عمليـــة أقل نشاط في العالم الهندي ، إذ لا وجود للشخص او للشيء إن لم يحمل اسماً (نام Nâma) . ويدخلهم هذا الاسم ضمن حلقة يحدد جوهرهـــا أحد الطقوس : وهكذا يستطيع المرء الذي ينتمي الى طائفـة الغسّالين ان يقوم بأي مهنة اخرى

شرط ان تطغى عليها صفة الغسالين؛ فهو كاهن أقل شأناً من غيره لأن مهمته مبدئياً هي غسل الخرق التي تصبح وسخة أثناء الحفلات الطقسية .

لذا غدا لزاماً على الهنود ان يحددوا بكل دقة جميع الأنظمة التي تمت الى طقوس العبادة . وهذا ما سعت اليه كتب الأدب الهندي الكثيرة منذ مجيء الآريين حتى عصرنا الحاضر ، خصوصاً المؤلفات (شاسترا) التي تعنى بهذه الناحية التقنية او تلك . ومن العبث والحالة هذه

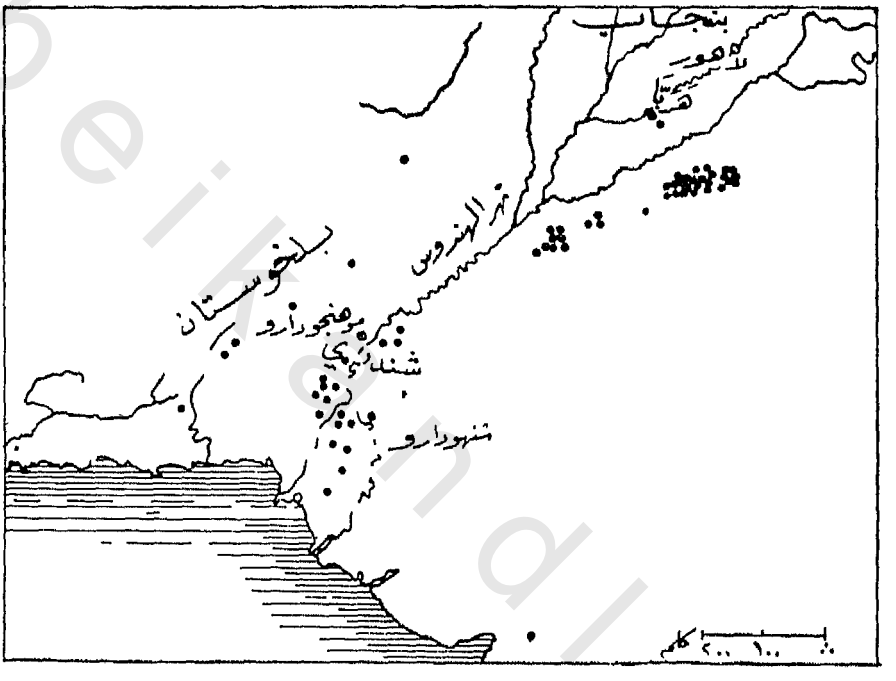

الشكل ٣١ ـ الهند في الزمن السابق للآريين . الحضارة المدعوة حضارة الهندوس .

اذن ان يسعى المرء لتفسير الحوادث الهندية خارجاً عن معانيها التقليدية ، وجلّ ما نستطيع القيام به هو ان نطبق على هذه المعاني أسلوب بحث علمي .

تحديد الوقت والاصول

هناك عامل يجعل من هذه الدراسة مسألة دقيقة جداً : اذ لا يقيم الهندي وزناً لمشكلة تحديد الوقت كما يفهم الغربيّ هذا الامر . ولماذا يهتم لهذا الشأن إذ ان لا قيمة للحياة الانسانية ولسرد متطلباتها إزاء السعي للوصول الى الكائن المجرد ، هذا السعي الذي تأمر به ديانة الهندي ومبادىء فلسفته ؟ وعلى من يريد دراسة إطار الهند التاريخي ان يكتفي ببعض المعلومات تكون كالاروم ، أو المقارنات مع حوادث لا تمت الى الهند ، أو

التخرصات أو الاستنتاجات. وان لم يرد التحيز عليه ان يبدي الكثير من أصالة الرأي ويكتفي غالباً بتخمينات تقديرية .

ولا يقدم لنا علم الآثار معونة تذكر حتى القرن الثاني ق . م . هـذا ان استثنينا بعض آثار وادي الهندوس التاريخية . إذ لم يتصل بنا أي أثر من مواد صلبة يعود الى ما قبل هذا التاريخ الذي يتفق مع التفتح الأول للفن البوذي . ويظهر بأن استيطان الآريين كان سبب قهقرى لفن البناء اذ لا نجد شيئاً مماثـلاً لمدينتي موهنجو – دارو وهرّبا Mohenjo-dâro Harappa . وكانت مباني عهد الديانة الهندية الاول من خشب وآجر ، ولم يبق لهـا أثر نسبة لطبيعة أرض ومناخ الهند . ومما يثبت هذا الظن بقايا قصر أسوكا في باتلبترا (القرن الثالث ق م .) والمباني الحجرية الاولى في القرن الثاني ق . م . التي تقلد بصورة واضحة المباني الخشبية

ولوضع دراسة عن هـذه الفترة الطويلة جداً التي تمتد من مجيء الآريين (قبل القرن السادس عشر) حتى القرن الثـاني ق . م . يضطر المرء الى استقاء معلوماته من النصوص الادبية . ويطلق على هذه النصوص اسم فيدا Veda « المعرفة » وهي مجموعة المعارف التي أتى بها الآريون والتي ازدهرت رويداً رويداً على الأرض الهندية . وتستند هذه النصوص الى وحي هبط عـلى الحكماء (ريشي Rishi) ونقلوه الى الخلف . وهي تقسم ثلاثـة أقسام : سمهتا Samhita أو « مجموعة » وهي تحوي خصوصاً على أناشيد دينية وصلوات وعبـارات طقسية ؛ برهمانا Brâhmana « شروح » أو تعليقات لمـا جاء في « السمهتا » ؛ وأخيراً أبنشد Upanishad أو « دروس » لها صفة السر . وتضاف الى هـذا كله الفيدانتا Vedânta أو ملحق للفيدا يوافق مضمونها التقليد والتي لا يزالون الى يومنا هذا يضيفون عليها .

ومن المحال تحديد تواريخ لأجزاء فيدا المختلفة إذ وضعت معظم النصوص وانتقلت الى الخلف بصورة شفوية وذلك حتى عهد قريب (القرن الحـادي عشر المسيحي ؟). ويجمعون على القول بأن السمهتا هي الأقدم عهداً ، وتعود الأفضلية في هذا المجال الى الريغفيدا Rigveda التي تحتوي على عشر « حلقات » (مندولا Mandala) ، هذا مع العلم بأن الحلقة العاشرة هي الأقل قدماً من زميلاتها . وتعيد اليجرفيدا Yajurveda والسامفيدا Samaveda مقاطع عدة من الريغفيدا مما يدل بأنها ظهرتا بعدها . ومـمـا لا شك فيه بأن الاتهرففيدا Atharvaveda التي تحتوي على عبارات سحرية هي أحدثهم عهداً . وان كان ممكناً ان نعيد تاريخ أقدم فصول السمهتا الى عهد وصول الآريين ، أي ما بين سنة ١٦٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق. م. فقد يبدو ان البرهـمانا والاوبنيشاد لم تظهرا إلا في الفترة التي تتراوح ما بين القرنن العـاشر والسادس ق. م. ثم رأت النور نصوص السوترا Sûtra التي تعد جزءاً من الفدانتا والتي ترتقي الى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ تقريبـاً ، وهي سبقت بقليل الآثار الاولى للفن البوذي . ولكن نعود الى القول بأن هذه التواريخ ليست إلا تقديرية .

اللغات والخطوط

كما طغا الغزو الآري على كنه بلاد الهند العرقي السابق ، هكذا فرض هـذا الغزو لغته التي غدت بعـد فترة قصيرة ، كما يظهر ، اللغة الكهنوتية : أعني السنسكريتية . ولا تزال قائمة عقدة معرفـة لغة البلاد التي غلبت على أمرها . فهناك اعتقاد ، لا يرتقي الى عهد بعيد ، بأن هـذه اللغة تمت الى اللغة الدرافيدية ان لم تكن شكلها الاساسي اذ لاحظ بعضهم وجود لغة درافيدية في عصرنا الحاضر في بلاد بلوخستان ، أعني اللغة البراهوى Brahû التي تكتنفها من كل جانب اللغات الهندو – أوروبية . وبعد ان فصمت جحافل الآريين العرى بين هذه اللغة وأصولها ، غدت البراهوي شاهداً حياً على وجود لغة سادت ، قبل مجيء الآريين ، على جزء كبير من شبه الجزيرة الهندي .

وقد جلب الآريون نفسهم اللغة السنسكريتية ، لغة فيدا ، وهي تعد الفرع الهندي مـن المجموعة اللغوية الهندو – اوروبية . وفي النصوص الاشد قدماً (الريغفيدا) تقـدم لنا اللغة السنسكريتية الفيدية تشابها بارزاً مع لغة افسته الايرانية ، تشابهاً يستمر ولو مجزءاً في النصوص الاخرى . ولكن يوجد اختلاف واضح بين اللغتين الفيدية والافستيـة بسبب التجديدات . وفي هذا المجـال كما في مجالات كثيرة أخرى وفقت الهند بين الجديد والقديم وأتاحت لهما الاستمرار معاً مما ولد تعقيداً يدعو غالباً الى الدهشة .

و السبب هو نفسه الذي نجده دوماً والذي يظهر خصائص الروح الهندية : فالسنسكريتية هي « لغة كهنوتية تحصر مهمتهـا في التعبير عن فكرة موجهة ذات أهداف سحرية . فللشكل أهمية اكثر من المعنى ، وللمعنى السحري أفضليـة على معنى الكلمات ، وتخضع الكلمات لترتيب رمزي معقد »(لـ. رنو L. Renou) . لذا نجد بكثرة التعـابير القديمة وذلك حرصاً على عدم مس التقاليد مع ما هنالك من ضرورة ملحة للتجديد .

ولكن مع البرهانا تبدو اللغة السنسكريتية الكلاسيكية أكثر تحرراً إذ هي تستنـد الى قواعد محددة وكلمـات دقيقة المعنى جداً . ومع الاوبنيشاد تقترب هذه اللغة أكثر وأكثر من اللغة المتداولة. ولكن جُمّدت على حالها اللغة التي تكونت وقد وصلت الينا على أشكالها القديمة.

وبصورة موازية للسنسكريتية نجد عدداً كبيراً من اللغات الكهنوتية او العامية التي نشأت ونمت وقد اشتق معظمها من السنسكريتية. ولكن احتفظ بلون محلي قد يكون أشد قدماً .

ويستعملون لكتـابة السنسكريتية ٤٩ مقطعاً تحتوي على أحرف صوتية ونصف صوتية وغيرها ، وفي اللغة قواعد لتصريف الأفعال واعراب الأسمـاء . وهكذا فهي تدخل ضمن اطار اللغـات الهندو – اوروبية وهي من ثم على طرفي نقيض مع اللغة الصينيـة التي سنأتي على وصفها لاحقاً .

لمحة تاريخية

يبدو أن انشقاقاً حصل ما بين القرنين الثامن عشر والعـاشر ق. م. على حدود هضبة ايران الشمالية – الغربية بين القبـائل الهندو – اوروبية التي كانت قد

استوطنت تلك المنـــاطق . وكانت تطلق على نفسها اسم الآريين Arya أو Airya . ولا يزال الجدل يدور حول أصلها . والنظرية التي تلقى اليوم رواجاً تأتي بالآريين من روسيا الجنوبيـة .

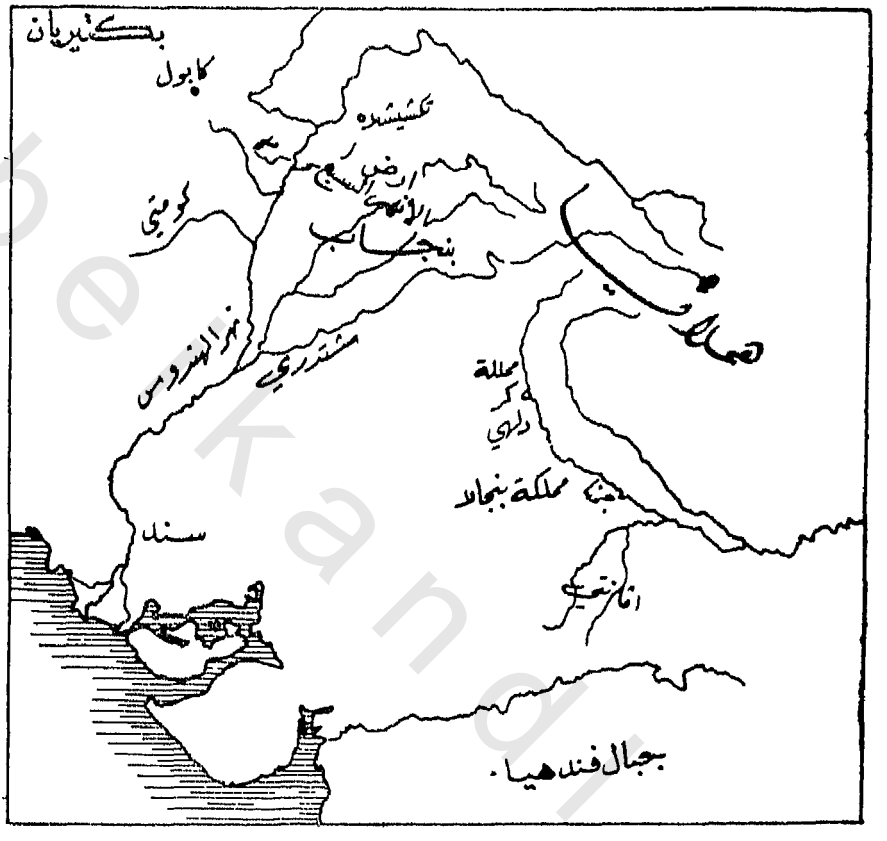

الشكل ٣٢ ـ الهند البراهمانية قبل سلالة الموريا

وقد وصلوا الى ايران باجتيازهم القفقاز ، ودخل الآريون الذين انشقوا عن الفرع الايراني الى الهند الشمالية – الغربية من منطقة وازيريستان الحالية او من وادي كابول ، وقد استوطنوا أول الأمر في البنجاب وهم الذين دمروا مدن وادي الهندوس، خصوصاً موهنجو – دارو وهرابا ، وحصل ذلك حوالي سنة ١٥٠٠ ق. م.

واستناداً الى المعلومات التي تحتويها أقدم النصوص الفيدية التي يرجع عهدها كما يظن الى زمن استيطان الاوروبيين في الهند ، فقد سكن هؤلاء أول الأمر في المناطق التي تمتد من أنهر كابول وسوات Swât ، والكرُمُ Krumu (كورام Kurram) ، والغومتي Gomati (غومال Gomal) ، وبـلاد الأنهر السبع في الشمال – الغربي حتى أنهر سرسفتي *Sarâsvatî*

(سرسوتي *Sarsûti*) ، وشتدري Cutudri (ستلج Satlej) ، واليمنا Yamuna (جمنا Gamna) شرقاً . وقد عرفوا شمالاً سلسلة جبال حملايا . وتذكر النصوص نفسها المحيط (سمدرا Samudra) ، مما يحمل على الظن بأن الآريين عرفوا مجرى نهر الهندوس السفلي (السند Sindh) حتى مصبه الذي تخيلوه آنئذ في درجة عرض أرفع مما هي عليه اليوم . ولم يتقدم الآريون الا قليلاً نحو الشرق اذ لم يذكروا نهر الغانج Gange الا مرة واحدة .

وحصل تقدم الآريين في هذه المنطقة الجغرافية المحدودة لانتصارهم في الحرب . وبعد ان انهارت كل مقاومة للسكان الاصليين اجبر هؤلاء على الخضوع لسيادة المنتصرين وأصبحوا لهم من ثم عبيداً ، أو هجروا نحو الجنوب والشرق حيث سيخضعون للفتح الاوروبي في خلال القرون اللاحقة .

وبعد ان استقرت القبائل الآرية في منطقة البنجاب تآلفت فكوّنت أحزاباً ثم اتحدت وأسست ممالك، ومن المعتقد بأن هذه الأمور لم تقم دون معارك داخلية . وحوالي سنة ٨٠٠ ق.م (؟) حيث ازداد تقدم الآريين نحو الشرق حتى انتقل مركز الثقل من البنجاب الى دواب Doāb ، أعني الى المنطقة التي تمتد من سرسفتي الى ملتقى الغانج واليمونا . ولم يتم اخضاع هذه المنطقة عن تغلغل الروح الآرية الا قليلاً اذ اعتبر السكان الأصليون كأنهم يؤلفون طبقة (فرنا : لون) وضيعة جداً . وباستطاعتنا منذ هذه الفترة ان نتحدث عن الممالك الآرية ، وقد غدت دولة الكُرو (Kuru) أعظمها قوة وأشدها مركزية . وقد تكون هذه المملكة قد أخضعت دولة البنكالا Pancala المجاورة وامتدت سيطرتها نحو الشمال ـ الغربي حتى وادي تكششلا Taksaçila (تكسيلا Taxila) ونحو الجنوب ـ الشرقي حتى ملتقى الغانج واليمونا .

ومن المقدر بأن تكون القبائل الآرية المستوطنة بين مجريي الهندوس والغانج قد بدأت تقدمها نحو الشرق حوالي القرن السادس ، فتأسست إذ ذاك بعض الدول والممالك في مناطق دلهي Delhi ، و « بلاد الوسط » (مدهيديشا Madhyadeça) ، وفي اوده Audh (كوشالا Koçala و فيدها Videha) ، وفي البهار الجنوبي Bihar (مغدها Magadha) : وامتدت هذه الدول أيضاً جنوباً حتى جبال فندهيا Vindhya وملكت معاً مدناً مهمة عدة منها كوسمبي Kançambi على اليمونا وكاسي Kaci (بنارس Bénarès) على الفرنافتي Varanâvati .

وبعد ان سعت مملكة الكرو (دلهي) في العهد السابق لبسط سيطرتها حاولت الوصول الى الرئاسة ، وسعت للسيادة دولة مغدها (البهار الجنوبي) وكانت قد تشربت أقل من المناطق الغربية الروح الآرية وبقيت متأصلة فيها الخصائص الوطنية الأصيلة حتى اعتبرها الآريون منطقة شبه بربرية . وأخذت على عاتقها الاستيلاء على حوض الغانج في الفترة التي تتراوح بين القرنين السادس والرابع . وفي هذا الوقت تغلبت سلالة الششناكا Cişunâga الآتية من أفانتي Avanti (أعني من مملكة العهد الآري السابق التي تقع في أقصى الجنوب) على سلالة البرهدرتا

Brihadrâtha الـتي لا نعرف عنها في الواقع أي شيء . وأخضع ملوك السسوناغا – ولا نعرف جيـــداً منهم إلا الملكين بيمبيسارا *Bimbisâra* (٥٣٨ – ٤٨٦ ؟) وأجاتشترو Ajâtaçatru (٤٨٦ – ٤٥٤ ؟) وذلك للدور الذي لعباه في الادب البوذي – البنغال ومنطقة كاسي(بنارس) وكوسالا (اوده) وفيدها (بهار الشمالي) . وبعد ان سيطرت مملكة مغدها على منطقة واسعة يؤلف مجرى الغانج محورها نقلت عاصمتها من راجغريها Rajagriha الواقعة في البهار الشمالي الى پاتليترا Pâtaliputra (بتنا Patna) على ملتقى السون Sone والغانج . وفي أواخر القرن الرابع ق . م. استبدل السيسوناغا على عرش مغدها بالنندا *Nanda* . وسيتابع هؤلاء العمل التوحيدي وسيتفرع عنهم الموريا Maurya الذين سينجحون حوالى سنة ٣٢٠ بتأسيس أول امبراطوريـة هنـــدية .

وبينما كانت مقاطعات الهند الآرية الشرقية تسعى لتنظيم نفسها واكتساب وحدتهـا ، غدت المقاطعات الغربية عرضة لتهديد غزاة جدد: اذ أخذت الامبراطورية الفارسية علىعاتقها إخضاع المقاطعات التي على حدود مملكتها وذلك أيام كورش (٥٦٠ – ٥٣٠) الذي استولى على كابيشا Kapiça (منطقة كابول) ثم زمن داريوس (٥٢١ – ٤٨٦) الذي ضم الى ممتلكاته الجديـــدة غندهارا Candhâra (منطقة بشاور) ومحمل بلاد بنجاب الوسطى حتى بياس Bias ، وأخيراً السند . وأصبحت هذه الحوادث بدء عهد اضطرابات أبقت مناطق الهند الشمالية ـ الغربية زمناً طويلاً على هامش الحياة الهندية السياسية الحقيقية ، إذ دامت السيطرة الفـــارسية زهاء قرنين وأعقبها تدخل جديد هو غزو جيوش الاسكندر الكبير (٣٢٧ – ٣٢٥) الذي سنأتي فيما بعد على دراسة نتائجه (انظر وجه ٦٠٧) .

لذا نستطيع ان نعتبر حكم الملك بيمبيسارا ذا أهمية إذ يكرس توحيد منـــاطق شاسعة في الشرق بينما يخلق انشقاقاً اجبـــارياً في المناطق الغربية تتسرب مرة ثانية من خلالها التأثيرات الايرانيـة كما حصل ذلك عندما أتى بها الآريون أنفسهم . ولكن يحمل هذا العهد أيضاً طابع حوادث دينية وروحيـة واجتماعية ستستمر نتائجها وقتاً طويلاً إذ حصلت تغييرات أساسية في الديانة الفيدية بتأثير البراهمة الذي تزايد مع الزمن . وبمناسبة هذه الحوادث ظهر تشريع حصر الجماهير في فئات وطبقات . وفرض البراهمة مبـــادىء روحية صارمة أخذت تحد من حرية الأخلاق. وبالاختصار فان مجموعة الحوادث التي تتكون منها الحضارة الفيدية أخذت تتطور نحو تشريع شكلي أوجب سلسلة من « الاصلاحات » . وتعددت المذاهب ، يعرض كل منها وسائل مختلفة تتعلق باحترام التقـــاليد والكهنوت ونيل التحرر ... وفي عهد ملك بيمبيسارا ظهر رجلان يعملان لهدف واحد : شاكيمني Cakyamuni الذي أسس الديانة البوذية وذاك الذي يطلقون عليه اسم مهافيرا Mahâvira ، مؤسس المذهب الجـايني Jainisme . وقد وجد كل من هذين المصلحين العقول الهندية مستعدة لقبول تعديل فكري بخصوص المسائل التي كانت تطرح

عليها بقوة متزايدة ولكن علينا ان لا نرى في هذه الاتجاهات المختلفة – ان انتسبت الى الديانة

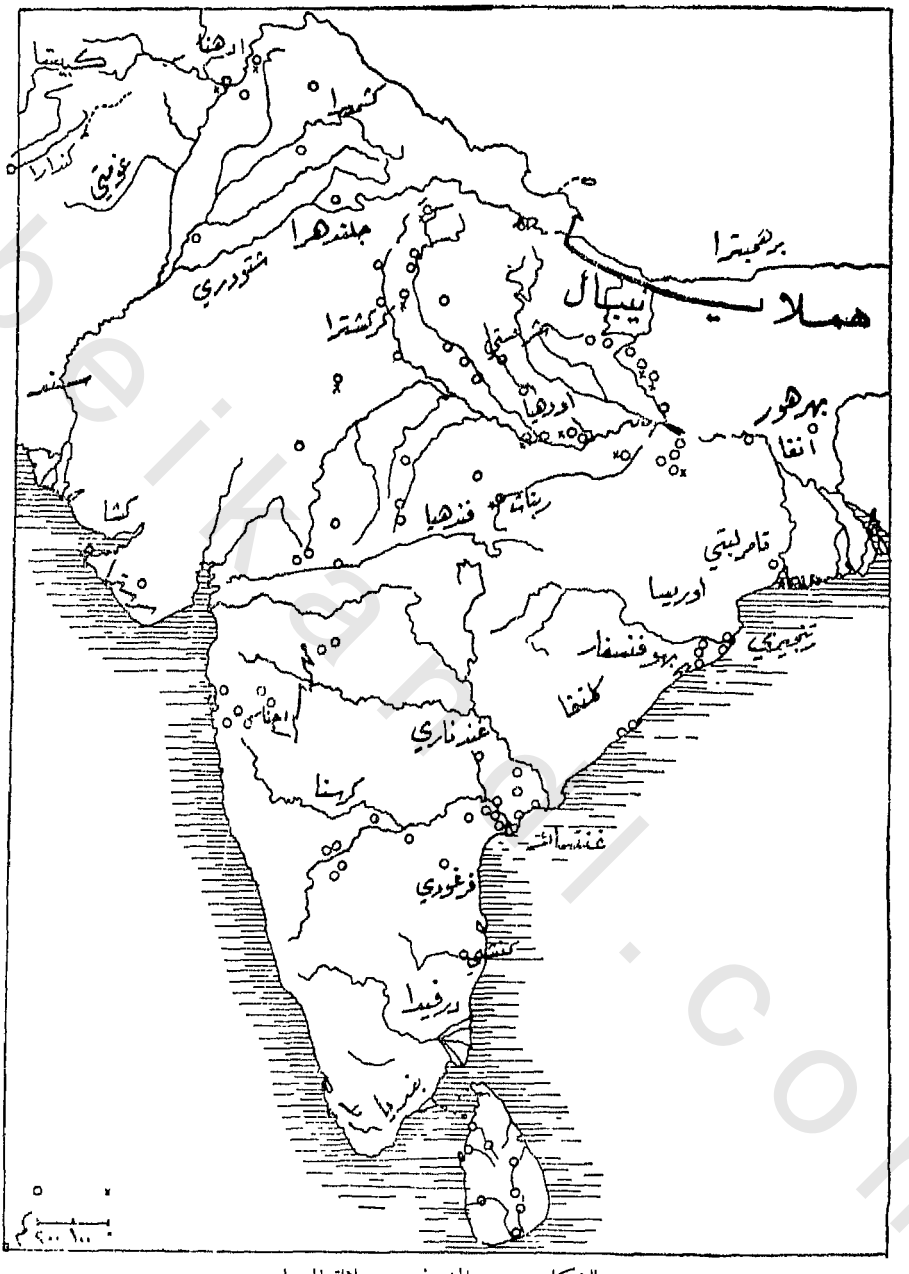

الشكل ٣٣ – الهند في عهد سلالة الموريا

الفيدية القديمة او الى المبادىء البوذية والجانية الجديدة – ثورة دامية تستند الى حرب مقدسة ، بل على عكس ذلك فهي تفتح وتوسع للمشاكل الروحية والميتافيزيقية التي تستوحب قواعد حياة تلتئم

أكثر فأكثر مع متطلبات الفرد. وهذه المشاكل كانت دون شك أساس تحريرالتعليقات والشروح (البرهانا) والدروس ذي الصبغة السرية (الاوبنيشاد) التي زيدت على نصوص العهد السابق الفيدية، وهي التي مهدت السبل أمام شاكيمني وأعدت له تجاوباً لدى الأمة للمبادىء الخلقية التي كان يبشر بها ، هذه المبادىء التي اتخذت لها أساساً محبة جميع الكائنات. وعلينا ان نتخيل اذن هذا العهد – الذي يشمل تقريباً القرنين السادس والخامس – كطور يقظة روحية حقيقية تسير جنباً الى جنب مع مساع حثيثة نحو الوحدة السياسية واتصالات أكيدة مع الغرب . ومع هذا علينا ان ننتظر ردحاً من الزمن قبل ان نشهد التناقض الحقيقي بين التقاليد الفيدية والبوذية . ولا يظهر في هذه الفترة الاختلاف العميق بينهما إذ لا تزال البوذية في مستهل عهدها ، وهي تعتبر مجموعة مبادىء روحية أكثر منها دينية ولا تنفي من ثم الزون الشعبي كما لا تتنكر بأي شكل لأسس الحياةالتي كانت مقبولة . ولن تظهر هذه الاختلافات بوضوح إلا في القرون الاولى للعهد المسيحي عندما يجعل منها تحرير النصوص البوذية وتفتح الفن البوذي مادة ملموسة . ومع هذا تبقى هذه الاختلافات متسمة بالطابع الديني والاجتماعي دون المادّي .

الفصل الثاني

الحضارة الهندية قبل عهد الموريا

عندما دخل الآريون الى مقاطعات الهند الشمالية ـ الغربية ـ بين سنتي ١٦٠٠ و ٨٠٠ ق. م. ـ وجدوا هناك سكاناً أصليين استرعت انتباههم خصائصهم العرقية ، إذ تنافت جداً ولا شك مع طباعهم. فقد كان لهؤلاء السكان بشرة دكناء ، وجعل منهم هذا اللون (فرنا Varna) أشخاصاً محتقرين في نظر غزاة بشرتهم ناصعة البياض. وكان أنف السكان الأفطس على طرفي نقيض مع أنف الفاتحين الأقنى ، وتكلموا لغة « معادية » أعني لغة لا يفهمها هؤلاء. وأطلق عليهم سادتهم الجدد اسماً شاملاً هو « الدرافيديون » ولكنهم حملوا أسماء في غاية الغرابة : آجا Aja (الماعز) ، سغرو Cighru (فجل حريف) ، دازا Dâsa او دازيو Dasyu ، باني Pani . وكان اسم دارا من الاسماء الاكثر شيوعاً ، واصبح له في العالم الآري معنى في غاية الحطة أي عبد (المؤنث : دازي Dâsi) . ولا نعلم إن كان اسما الماعز والحريف يدلان على نظامين قد زالا هما المبدأ النباتي Végétalisme والمبدأ الذي يجعل من الحيوان جد الخليقة (الطوطمية Totemisme) . ومع هذا فاننا نعلم بأن الدرافيديين كانوا يحيون حياة الرعاة ويصطادون الجاموس والأسد بالقوس والنبال ، ويحتمون وراء أسوار تعززها كوم من التراب والأوتاد . ونعتقد بأنهم كانوا يمارسون ديانة خاصة Phallique مع أن معرفتنا في هذا المجال محدودة جداً .

ويظهر ان دازا الذين استوطنوا السهول اعتصموا عند زملائهم الجبليين وقاوموا بشراسة الآريين مدافعين بكل ضراوة عن مساكنهم وأسوارهم المنيعة . ومع أن اخضاعهم غدا مراراً صعباً جداً فقد أحال الغزاة رجالهم الى عبيد واتخذوا من نسائهم خليلات . ومع أن الآريين يفتخرون غالباً بأنهم أخضعوا مناطق أعدائهم بالقوة ـ ولنا أدلة تحملنا على صدقهم ـ فلا يظهر بأنهم عاشوا بحالة حرب متواصلة مع السكان الأصليين ، إذ نقف على حالات تزاوج بين الفريقين مما يثبت بأن الفاتحين في ذلك الطور القديم لم يشعروا ـ كما سيحدث فيما بعد ـ بضرورة الحماية من شرور التزاوج الخلاسي المنتظرة .

١ – خصائص الحضارة الفيدية

المستندات

ان ابرز خصائص هذه الحضارة هي الحياة الزراعية المؤسسة على قوة الذبيحة الإلهية الفاعلة . ان عناصر ثروة السكان الأصليين وسادتهم الآريين تقوم خصوصاً على نتائج القنص والزراعة وتربية المواشي . وعلاوة على القوس والنبال استعمل الآريون فأساً من النحاس ، ولجأوا الى الفخاخ والحفر للايقاع بالطريدة الكبيرة (الفيل ، الأسد ، ثم النمر) والى الكلاب لاكتشافها والى الخيل للحاق بها ، كما استعملوا الشباك لاصطياد العصافير . ويظهر بأن صيد الأسماك لم ينتشر الا في عهد البراهمة ، ومع هذا فان الانهر ومجاري المياه التي عاشت بقربها القبائل الآرية الاولى كانت قليلة الاسماك .

وغدت الزراعة أهم أعمالهم. وتألفت قطعان الماشية من الابقار الحلوبة والثيران والعجول والاغنام والماعز . ولجأوا الى كلاب الحراسة لجمع القطيع، وقاموا بهذا العمل مرة أقله في النهار، عند الظهيرة . وكانت البقرة منذ البدء حيواناً شبه مقدس اذ غدا قتلها وأكل لحمها محرمين، وقد حلبوها ثلاث مرات في النهار . واستعمل الثور لجر العربات ولأعمال الفلاحة . وجمعوا شعر الماعز للنسيج . وادخل الحصان بعض المرار ضمن حيوانات القطيع واستعملوه للحراثة ولجر العربات عند القيام بالاعمال الطقسية ، وكانوا يعتلونه ولكنهم لم يستعملوه في الحرب . ولم يصبح الفيل أليفاً الا منذ عهد البراهمة وغدا من ثم خير مساعد للانسان ولم يستعملوه في ذاك الوقت في الحرب . ولا يظهر بأنهم جعلوا من الهر في ذاك العهد حيواناً داجناً . وغدا القطيع ملكاً مشاعاً يجمعونه في بعض الحقول المسيجة وينزلونه معهم في البيت .

وتتم أعمال الحراثة – وللحراثة اسم مشترك بين الهنود والايرانيين – بواسطة محراث يجره خروفان . ومع انهم زعموا في عهد البراهمة بأنهم يستطيعون ان يشدوا الى المحراث ٢٤ ثوراً فان هذه الآلة لم تتطور كثيراً خلال القرون اللاحقة ، اذ تثبت رسوم هذا المحراث التي ترتقي الى القرن الثاني ق. م. (وهي أقدم زميلاتها) حالة هذه الآلة البدائية . ومنذ أقدم العصور اعتنوا بري المزروعات . وكانت أعمال حفر قنوات الري وصيانتها أعمالاً مشتركة . وفي وقت لاحق أضيفت خزانات المياه الى هذه القنوات . وابتداء من عهد البراهمة ، وكان قد توغل الآريون في مناطق بلاد الوسط الأكثر خصباً ، عرفوا مبدأ تسميد الاراضي واستثمار الطمي والانتفاع من الرياح الموسمية الخيرة .

وشملت المزروعات في أول الامر الشعير (؟) (يافا Yava) ، لتمتد فيما بعد الى الارز والقطن الذي غدا منذ ذاك اليوم أساس أعمال النسيج. ثم تطورت المزروعات وتزايدت فشملت الحنطة ، والحمص ، والسمسم ، وقصب السكر ، وأنواعاً عدة من الحصار والزهور والثمار . ولا نعرف شيئاً أكيداً عن مزروعات الاشجار المثمرة ، ولكن نجد ذكر صنفين للتين وهما تين لنّ Ficus religiosa Linn وتين روكسب Ficus indica Roxb .

وتتألف مواد التغذية والحالة هذه من حبوب قد تحوّل الى طحين ، وحليب ، وسمن ، وعسل ، وخضار ، وثمار ، وحتى عهد البراهمة ، ولحوم (تيس وضأن وثور وحصان) ، اذ لم يحرم اللحم الحيواني الا حين أصدر البراهمة قانوناً صارماً بهذا الخصوص . وهناك نوعان من المشروبات المسكرة : السوما Soma ويستخرجونه من نبات ايراني الاصل لم يحدد بعد ، ويستعملونه عند تقدمة الذبائح – والسورا Sura يستخرجونه من نباتات عدة يشربه الشعب وان كان شبه محرم .

ولم تنتشر التجارة في أول الامر ، ولكن سرعان ما ازدهرت . وقد سهلتها اقامة طرق للعربات بنوها بصورة مشتركة وبنوا عليها منازل تستعمل كملاجىء للمسافرين في مختلف المراحل. والتنقل كثير الشيوع يقوم به الشحاذون والبراهمة والتجار . وقد ألف هؤلاء نقابات وتجمعوا ضمن قوافل تنتقل على الطرقات والممرات وتصل المدن الرئيسية بعضها ببعض وتنقل من منطقة الى أخرى الاقمشة – القطنية الموصلية والمزركشة والحريرية – والطنافس والعقاقير والروائح والحلى والاسلحة والسكاكين . وقد تقوم هذه القوافل برحلات طويلة فتوطد من ثم العلاقات مع المناطق التي تجاور الهند خصوصاً الاسواق الافغانية والايرانية . وتجري التجارة في المدن في دكاكين صغيرة خشبية تفتح للجمهور او في الاسواق. وكثيراً ما يأتون على ذكر تجار أغنياء مما يثبت ازدهار التجارة . وتوجد أيضاً التجارة النهرية وهي تستعمل قوارب لها من الاهمية ما يوجب استعمال جذافين ومدير دفة .

ويعتمد القانون التجاري على المقايضة ، وقد مثلت وحدة التعامل في البدء البقرة وحلية (نيكشا Niksha) من الذهب والفضة ، ثم استعملوا للوزن نوعاً من الآلات (كرشنالا Kirshnala) وصفيحة أو قطعة من الذهب (ستامانا) تسوى مئة كرشنالا . وعرفوا « المفاصلة » والدين والقرض . وأتوا على ذكر تجار جشعين ومرابين ، كما تكلموا عن الفائدة التي تتراوح بين ١/٦ و ١/١٦ . وعقد الاتفاق أمر عادي يحيطونه بنوع من الافعال الطقسية . والدين الذي لا يسدد يعرّض صاحبه لعقاب صارم : اذ قد يحكم على من يستدين بالعبودية أو بالعذاب .

وتقوم الصناعة على الصناعات الريفية. والصناعات المذكورة هي قليلة العدد في أول الامر: فالنساء تنسج القطن وشعر الماعز ، وهي تخيط وتطرز وتصنع الفرش ؛ ويصنع النجارون الآلات الزراعية والعربات وعجلات الحرب ويعدون الاخشاب ؛ ويشتغل الحدادون في معادن النحاس والبرونز والحديد ، كما يعد الدباغون الجلود . وتتألف النقابات بطريقة مطردة ويصبح لكل منها اختصاص استناداً الى المواد المستعملة : فالنجارون والنقاشون يستعملون الخشب ، ويذيب الحدادون والصاغة معادن الحديد والنحاس والقصدير والرصاص والفضة (وكميتها نادرة) والذهب (وكمياته كثيرة جداً) ويصنعون منها الاشياء المختلفة ، ويستعمل اخصائيون العاج لصنع الاقواس والنبال . وتكون الآلات من خشب ونحاس وحديد . ونجد مهناً أخرى

كثيرة : فهناك العمال لذر الحبوب والفخاريون والصباغون والغسّالون والنسّاجون الخ . ويكثر جداً الحلاقون والمنجمون وكهنة الضيع اذ لا غنى عنهم في كل أعمال الحيـــاة ذات الاهمية . واكثر العملة استقراراً هم القناصون والصادون واللحامون وكل الذين توجب عليهم أعمالهم قتل الحيوانات (خصوصاً في الدول الشرقية) . وطبعاً هناك الرعاة والفلاحون ، كما يلجأ القوم الى الحراس والرسل ، ويذكرون طائفة من المهن التي لا يستقر أصحابها والذين يأخذون على عاتقهم التسلية والترفيه عن الغير : كالهراج والبهلوان والممثل وناقر الدف والضارب على الزمـــارة . ويتوارث القوم أغلب الاحيان هذه المهن وقد نجد قرى لا يسكنها الا الذين يتعاطون ذات المهنة . ولكن هناك صناع بصورة عـــابرة يكونون عبيداً ويسمح لهم بالعمل ليستطيعوا تحرير ذاتهم وذلك من ثمرة انتاجهم .

ومن المحتمل أن تكون الحرب أيضاً سبب ربح، خصوصاً لافراد طبقة الراجانيا ثم الكشتريا الذين يهيمنون على المجتمع الفيدي . ويرافقهم صنـاعيون وفلاحون سيحل محلهم فيما بعد الجنود المرتزقة . ولكنا لا نملك معلومات تفيدنا عن كيفية اقتسام الغنائم .

٢ – الحياة الاجتماعية

المجتمع

تستند هذه الحياة الريفية والزراعية على المجتمع القروي الذي ينتمي الى مـا يدعونه بالاسرة الابوية والذي يشمل مـــع هذا أثاراً من نظـام الاسرة المنتسب الى الام . وتستند اهم أفعال هذا المجتمع الى الذبيحة . ومع انـه منذ البدء اعتبرت فئتا الكهنه (البراهمة) والمحاربين النبلاء (الراجانيا والكشتريا) الطبقتين الحاكمتين فلا يظهر مع هذا بأنه كانت هناك دقة كبيرة في تقسيم المجتمع منذ أول العهد الفيدي. ولكن حصلت في وقت لاحق تجزئة أوضح وتكوّنت فئتان آخريان ، طبقة « الرجـــال الاحرار » (الفيشيا) وطبقة العبيد (الشودرا Çûdra) . ومع هذا لم تكن هناك طوائف محددة المعالم تفصل بينهـــا حواجز منيعة كما سيحصل في العهود اللاحقة . ويصدق هذا بصورة خصوصية في الدول الشرقية حيث تغلغلت الروح الآريـــة بصورة سطحية. وقد كان لهذا العامل ولظهور البوذية الاثر في تخفيف قسوة المبادىء البراهمانية الحقيقية .

وتتصل الفئتان اللتان توجدان على رأس المجتمع – طبقتا رجال الكهنوت والنبلاء – بعرى وثيقة وتتمتعان بحرية كبيرة . ويستطيع البراهمة والكشتريا ان يتخذوا لهم مهنة الزراعة أو التجارة ، ويهتموا بقطعان المواشي أو بالقوافل ، وينقشوا على الخشب الخ ويستطيعون أيضاً ان يتخذوا لهم زوجات ينتمين الى فئات دونهم شرفاً ، حتى ان كن من طبقة العبيد . ولكن لا يتعاطى البراهمة غالباً الا الاعمال الطقسية ، وهذا مما يقوي سيطرتهم لانه يتعذر على أي كان الاستغناء عن خدماتهم اذ ترافق حتماً الذبيحة كل عمل مهم ان كان في مجال الحيـاة الشخصية أو الرسمية . فالبراهمة « رجال الامور المقدسة » هم الكهنة المستديمون ، وهم يديرون الاعمـال

الطقسية ويتقاضون نصف الاتعاب بينما يتقاضى النصف الآخر الذين يقومون بالاعمال الطقسية بصورة عابرة؛ وقد يختص كل منهم بعمل أو بعدة أعمال . وهم يقومون في القرى بدور الطبيب الساحر . ومن بينهم ينتخب كاهن الملك (البروهيت) الذي يصبح لـه المركز الديني الاول . واذ يعينه الملك يصبح مرافق العاهل في جميع تنقلاته لا بل يذهب معه الى الحرب ، ويتلو الصلوات ويتمم أعمال الرقى ليضمن للملك النصر أو النجاح في الاعمال . انه ينظم أفعال العبادة ، ويرأس الحفلات الطقسية ويقبل الهبات . ويمتهن غالبـاً براهمة القرى مهنة تمت الى بعض الاشكال الطقسية ، كمهنة الحلاق والمنجم والغسّال الخ ؛ ونسبة اليهم يوجد نساك وزهـاد عديدون أخذوا على عاتقهم بث الدعاوة البوذية في الدول الشرقية منذ بدء انتشار تلك الديانة .

والكشتريا هم المحاربون الاشراف ، يتعاطون الادارة والسياسة ويساهمون في المعـارك ويكوّنون عادة طبقة الملاكين العقاريين في البلاد . وينتمي الملك الى هذه الفئة ومنهـا ينتخب نسبة لحقوقه الارثية والعائلية . وينتخب الشعب العاهل أو أقله يقبل به ، اذ لم يتوج الكهنـة الملك الا في زمن لاحق . وتنحصر مهمة الملك الاولى في الدفاع عن أفراد الامة والقيـام بأود طغمة من رجال الكهنوت يقفون نفسهم في خدمته وخدمة شعبه ؛ وهو يستثمر أملاكه التي تتألف من غابات و « أماكن صحراوية » لذا يفرض الضرائب بواسطة الآخرين . وبما انه كان رئيس قبيلة أو جماعة أخذ يهيمن ويسيطر بصورة مطردة ويعزز سطوته بالذبائح العظيمة كتقدمة الحصان (اشفميدها) وبحفلة تتويج زاهية (راجسوي) ؛ وهكذا توطدت منذ البدء صفة الملك الإلهية .

وتشمل فئة الرجال الاحرار الفلاحين والتجار والصناعيين . وان توصل بعض منهم الى جمع ثروة طائلة فانهم يبقون مع هذا عرضة للضرائب والتسخير اذ هم فلاحون عنـد الكشتريا ، يقدمون لهم الغذاء ويرافقونهم في الحرب. ويكوّن التجار والصناعيون نقابات يصبح رؤساؤها غالباً أصدقاء النبلاء .

والفئة الاكثر احتقاراً هي فئة العبيد ، وقد شملت في البدء دون شك احفـاد السكان الاصليين الذين غلبهم الآريون عـلى أمرهم . ويضاف اليهم الافراد الذين حكم عليهم لعـدم تسديدهم ديونهم ، أو أفراد آخرون أبدلت عقوبتهم بالرق ، أو أسرى الحرب أو حتى رجال تخلوا بملء ارادتهم عن حقوق طبقتهم واعتبروا نفسهم عبيداً رغبة في التكفير أو قهر النفس . والسودرا هو كائن دنس من طبيعة نفسه يمكن جرحه أو حتى قتله . ولا يحق له دراسة الفيدا أو تقدمة الذبيحة ، ولكن قـد يجمع ثروة من عمله فيسمح له اذ ذاك بتحرير نفسه . ولكن يلمس المرء من خلال هذا النبذ والخنوع الذي قـد يؤدي الى الموت ذكرى المعارك المريرة التي خاضتها القبائل الآرية ضد السكان الاصليين في أيام الفتح .

وهكذا مع ليونة هذا النظام الاجتماعي نشهد محاولة صريحة لتقسيم المجتمع حسب الاعمال

والمهن ، هذا التقسيم الذي يستند الى الضرورات التي تفرضها طقوس العبادة ، وهكذا نرى بان مبادىء الحياة الاجتماعية الهندية أصبحت على وشك اكتساب كل الخصائص التي سنشهدها لها في العهد اللاحق .

الدولة

يستند هذا المجتمع الى نظام ملكي تتكافأ فيه ثلاث سلطات : سلطة الملك ، وسلطة رجال الكهنوت ، وسلطة الشعب . ويخضع الشعب والكهنة للملك ولكن بصورة غير مطلقة . وهناك عدد من الموظفين الكبار يؤخذون من طبقة الكشتريا، لا بل من فئة الفيسيا مراراً : قائد الجيش (سيناني) ، شيخ القرية (غرامني) الذي يصبح كنائب الملك ، أمير الأخور، المنادي أو الشاعر (السوتا) الذين يكون لهم سلطة قضائية .

وللشعب كلمة في الحكم . وهو يجتمع في مكان خصوصي ، تحت أشجار القرية أو في سرادق سقفه من عشب . ويحتوي مجلس الشعب هذا على الشباب والشيب، أفراد القبائل وسكان القرى. وهو يعين مجلس الشيوخ ولجان تحكيم تتخذ القرارات باجماع الاصوات .

وتقسم المملكة اداريا الى غراما (القرية وجماعة مسلحة) ، وفيس (كور أو فخذ قبيلة) ، وجانا (قبيلة أو مجموعة كور) . ولكن هذه المعلومات هي عرضة للتغيير والتبديل ولا نعثر في النصوص الا على القليل من الأوصاف التفصيلية بهذا الخصوص.

أما السلطة التنفيذية فهي منوطة بالملك ، وقد يصدر بعض الأحكام مجلس شعبي(سبها). ولا نجد شيئاً واضحاً للنظام القضائي ، ولا يأتون على ذكر بعض العادات التي ستسود في وقت لاحق كاهمال الأبوين المسنين ، والتخلي عن البنات ، وجمعيات الخليلات اللواتي ينتسبن الى أصل شريف، ومع هذا فهم يمارسون الدعارة . وتخضع الجرائم للعقوبات التي يفرضها وينفذها الشخص الذي هضمت حقوقه دون أن يستطيع مع هذا الحكم بالموت . ويقدر ثمن دم الانسان بمئة بقرة عندما تحدث جريمة قتل ؛ ولكن في عهد البراهمة تغيرت هذه القوانين تبعاً للطبقات . وهم يعددون لوائح للجرائم دون أن نعرف مع هذا بصورة دقيقة العقاب الذي يتناسب مع كل منها . وفي بعض الأحيان كان يأمر الملك بتعذيب جسماني . وهم يعاقبون على السرقة والخلع واللصوصية والدين . وتكثر سرقة الماشية حتى انه يوجد أشخاص اخصائيون للبحث عن الحيوانات المسروقة .

الاسرة

ان الاسرة هي أساس المجتمع الفيدي . وتخضع الاسرة لسلطة رب المنزل الذي عليه ان يمارسها دون شراسة . وله الحق بتأنيب أولاده وتقرير زواج بنيه وبناته . وهم يفضلون ولادة الذكور ويستعدون لها بسلسلة من الطقوس تمت صراحة الى السحر. وعندما يولد الطفل يشعلون له ناراً خصوصية ويقدمون هدايا من السمسم والأرز مدة عشرة أيام ؛ وينفخ فيه الوالد النفس ويخضعونه للحمام ثم يطلقون عليه اسمين : الاسم العادي والاسم السري الذي لن يكشفوه له بعض المرار الا في وقت لاحق عند حفلة الاشراك . وعندما يبلغ الثالثة من عمره

يقص له الحلاق شعر رأسه لأول مرة حسب الشكل الذي يختص باسرته . وعند تنفيذ هـذا الأمر يقيمون حفلة يطمرون فيها الشعر بعد ان يخلطوه بالأعشاب وزبل البقر . وعندمـا يبلغ الفتى السادسة عشرة من عمره يعيدون نفس الطقوس عند حلاقة لحيته، وهذه الحلاقة هي رمزية فقط اذ يبقى رجال العهد الفيدي على لحيتهم بكاملها .

وعندما يبلغ الشاب سناً يختلف باختلاف الطبقات والظروف يعهد به الى مرب . ويقيمون بهذه المناسبة حفلة تكون مقدمة لحفلة الاشراك الدينية، وعندئذ يدخل الشخص في مرحلة جديدة من الحياة . وعليه ان يسهر ليبقي نار الاسرة مشتعلة ، ويشحذ قوت معلمه وقوتـه ، ويفترش الأرض ، ويحافظ على العفة ويطيع طاعة عمياء ويمتنع عن أكل بعض الأطعمة . وتقام حفلات طقسية اثناء حياته الدراسية في بدء ونهاية الفصول . ولم تحدد مدة هذه الدراسة . وعندمـا تنتهي يستعد الشاب للعودة الى اسرته ، فيستحم ويعتق من نـذور الدراسة ويطرح أمتعته في الماء ويلبس ثياباً جديدة، ويصبح اذ ذاك أهلاً للزواج ويقوم بدوره باعباء ومسؤولية رب المنزل.

ويستند الزواج في العهد الفيدي الى انتخاب متبادل يجريه الزوجان وهناك أسباب جديرة بالاحترام تجذب الزوجين الواحد نحو الآخر . وقد رأينا بأنه يجوز عقد قران شخصين ينتميان الى طائفتين مختلفتين، ولدينا أمثلة عدة تثبت بأن والدة بعض الشخصيات كانت من طبقة العبيد، دازي اوسودرا . ومـع هذا غدا من المستحب في زمن البراهمـة ان ينتخب الزوج زوجه من الطبقة التي ينتمي اليها . وتقع على عاتق الوالدة مسؤولية ايجاد زوج لابنتهـا ، وهي تقدم لها النصح في هذا المجال وتشرف على زينتها لتجعل منها فتاة يرغب فيهـا أكثر وأكثر . وعلى طالب الزواج إذن أن يكسب عطف حماته المستقبلة ، ويتوجب عليه علاوة على ذلك أن يدفع لوالد خطيبته ثمناً كما لو كان يبتاعها الشلكا *Ulka* أي مئة بقرة وعربة . ولا نعلم ان كان هذا الأمر أصبح عادة أو غدا فقط شبه عقد . وكثيراً ما يشاهد الخطيب خطيبته دون أي قيد . وترتدي الفتاة ثياباً جميلة لتروق أكثر في عين من سيصبح لها زوجاً ، وهي لا تنـام ملء عينيها ليلاً بانتظار مجيئه ولا يفترقان الا عند الفجر . ويعتبرون هذه الاجراءات كطقس يسبق الزواج . واستناداً الى هذه المعلومات فلا يجري الزواج الا بين شابين بلغا أشدهما وهما في ريعان الفتوة، ولا يذكرون حتى هذا التاريخ – الا حادثة يخيم عليها الشك – زواجاً يجري بين ولدين، هذا الأمر الذي سيصبح عادة فيما بعد .

ويسير جنباً الى جنب نظام الزوجة الواحدة مع مبدإ تعدد الزوجات الذي لا ينفذ على كل حال الا لدى الطبقات الحاكمة . ولا يذكرون نظام تعدد الأزواج، ولكن من المحتمل ان يكون قد عمل به في وقت سابق لهذا التاريخ اذ يجدون ذكره في بعض القصص الخرافية الإلهيـة . ويظهر بأنهم قبلوا في زمن متوغل في القدم بمبدإ نكاح الوالد لابنته أو الأخ لأخته ، ولكنه حرم في العهد الفيدي ، كما حرمت هذه العقيدة الزواج بين ذوي القربى في الدرجة الثالثة والرابعة .

ويسبب الزواج سلسلة من الحفلات الطقسية . ويحدد تاريخ النكاح بكل دقة استناداً الى ارشادات المنجم . وعندئذ يرسل الخطيب رسلاً الى حميه الحتيد. ويمتدح هؤلاء الخطيب واسرته ويتممون العقد . ويقودون بعد ذاك الخطيب الى بيت الفتاة وسط جمهور من النساء حيث يستقبلونه بمظاهر الحفاوة والتكريم كما يستقبلون زائراً مرموقاً . ويقابل الخطيب خطيبته ، ويقدم لها بعض الهدايا التقليدية (الثياب والمرآة) . وبعد ان تقدم الفتاة قرباناً من الحبوب المحسحسة يرافقها الخطيب في جولة تستغرق سبع خطوات وهو ممسك بيدها وقد عقدت معاً ثيابهما . وهذا ما يكرّس تملك الخطيب لخطيبته . ويرمز العمل الذي سنأتي على وصفه الى تخلي الفتاة عن اسرتها . فهي توضع في عربة أو تعلو جواداً أو فيلاً ويقودونها بموكب نحو بيتها الجديد ، ترافقها نار طقسية تصبح نار اسرتها . وهي تدخل المنزل دون ان تمس عتبته ، ثم تجلس وتضع على ركبتيها ابن امرأة لم تلد الا ذكوراً أحياء . وفي الثلاثة أيام التي تلي يحافظ الزوجان على العفة بكل حرص. ولا تبتدىء فعلاً حياتهما المشتركة الا في اليوم الرابع بعد ان يقوما ببعض التقادم التكفيرية .

ان الزوج هو السيد مبدئياً ولكن للمرأة مع هذا دورها الهام . وتشير كل الكلمات الفيدية التي تدل عليها الى انوثتها وقدرتها على انجاب البنين وعاطفتها الوالدية . والزواج هو النهاية الطبيعية لحالتها ويصبح البيت الزواجي مستقرها اذ يستحيل على الزوج القيام بالطقوس العائلية والبيتية ان لم تكن الى جانبه . وان كان دور المرأة في هذا المجال سلبياً فهي تصبح مع هذا الكاهنة في بعض الحفلات الزراعية ان لم يكن لها زوج .

ولا تتوافق المعلومات التي لدينا عن شأن المرأة في العهد الفيدي . ولا يظهر مع هذا بأنهم أساؤوا معاملة البنات. فهن قبل زواجهن يساعدن الوالدة في القيام بأعباء المنزل ، ويجلبن الماء من الآبار بواسطة جرار يحملنها على رؤوسهن ، وينسجن الثياب ويطرزنها . والزواج هو سدرة الأمل عندهن ، وان لم يتزوجن يبقين عند والدهن ويعتنين بشؤونه . والأخ هو حامي شقيقته ، ويتحدثون بسخرية أو بحسرة عن « الابنة التي لا شقيق لها». فالابن هو الذي يرث الوالد ويمارس سلطاته . ومع هذا نجد بعض النصوص التي تشير الى عوانس عرفن اليتم وورثن الأملاك الوالدية وقد فضلهن القانون على الأولاد المتبنين أو غير الشرعيين. ولا نعرف معرفة بينة اشكال الملكية. ويظهر بأن ثروة الأسرة استندت على ملكية الأراضي التي كانت تخص كما يبدو الوالد . وقد تكون أيضاً مشتركة تضاف اليها الممتلكات الخصوصية التي تشمل المواشي والأسلحة والحلى . وقد تثقفت بعض النساء ثقافة عالية جداً ، وتحتفظ كتب الادب القديم بآثار تقليدية تدل على مركزهن الثقافي. ونجد نساء بين النساك (ريشي) لا بل بين علماء اللاهوت في عهد الاوبنيشاد

وقد تحيا الفتيات حياة لهو واستخفاف ويثرن الشكوك بثيابهن الحمر . ويراقب الوالد والأخ سلوكهن ، ولكن كانت الدعارة كما يبدو أمراً كثير الوقوع .

ويبيحون زواج الأرملة ان لم يكن لها ورثة ذكور من زوجها الاول ولكن فقط (؟) مع شقيق زوجها المتوفى بغية تأمين استمرار النسل . ولكن يظهر بأنه في وقت لاحق استطاع قريب المتوفى أو تلميذه أو حتى عبده ان يحل محله لينجب أولاداً للاسرة التي غدت تمثلها الارملة. ومن المحتمل بأن الارملة ، مثل عهد الريغفدا، كانت تحرق مع زوجها ، اذ يجدون أثراً لهذا الامر في المستندات الطقسية . وقد ألغيت هذه العادة أيام الهند الفيدية ولكنها أعيدت ثانية في العصر البراهماني .

وتحدد طقوس منزلية حياة الاسرة بجميع مظاهرها . ومحور هذه الطقوس هو النار (اغني *Agni*) التي تشعل داخل البيت وسط إطار من الحطب أو خارج المنزل ، وتعد السيدة الحقيقية (جارهبتيا) وبقربها تقدم القرابين اذ هي السبيل الى كل شيء، وتمت هذه القرابين غالباً الى أصل نباتي وليس حيواني ، كسمن يذوبونه ثم يصفونه . والطقوس هي في غاية البساطة يقوم بها رب الاسرة ، وقد تؤديها الزوجة أو يتممها مراراً أحد البراهمة . ويقام عدد كبير من هذه التقادم والقرابين في اماكن عدة من المنزل وفي مناسبات مختلفة (على العتبة ، امام مقدمة السرير أو الجهة المناقضة) .

وهناك مناسبات عدة تعد ظروفاً تستوجب القيام بأفعال العبادة أو اعمال طقسية منها اوجه الحياة الزراعية ، وعودة الفصول ، وابعاد الحيات السامة ، واستقبال الضيوف ذوي المقام الرفيع ، وبناء منزل ... وللأعياد الزراعية اهمية خاصة اذ عليها يتوقف ازدهار الزراعة والماشية . وهي تظهر اكثر من سواها تدخل الحياة الدينية المتواصل في حياة القرويين اليومية .

ولكن يوحد طقوس اكثر ابهة وعظمة تأخذ فيها الذبيحة كامل معناها ويظهر فيها مقدمها بدوره الإلهي الحقيقي ، أي الوسيط بين الانسان والإله، وتثبت الذبيحة من ثم بأنها صلة الوصل بين الامور المقدسة والعادية . وتستوجب هذه الطقوس الحافلة وجود الكهنة واستعمال عدة نيران. وهناك انواع مختلفة منها، ما يقام بمناسبة ظهور الهلال وبدء السنة الجديدة وجني المواكير الزراعية . ويبدو بأن بعضاً منها يعني افتداء حياة رجل بتقديم تيس . واهم هذه الطقوس هي تلك التي تستعمل السوما والتي تدوم مراراً اياماً عدة ، ومن اشهرها الفاجبيا ولا تعرف الغاية منها ولكنها تحتوي على امور غريبة كسباق العربات الذي قد يرمز الى الشمس ، والراجسويا او التتويج الملكي . وهذه حفلة اقل قدماً من غيرها — حيث يعتد الكهنة وممثلو الشعب الملك ويجلسونه على العرش ، والاسفميدها ، ذبيحة الحصان ، وهي من اكثر الطقوس كلفة ، تثبت قوة الملك المظفر وتهبه السيادة المطلقة وتؤمن ازدهار المملكة . وتشير بعض هذه الطقوس — الاسفميدها والراجسويا خصوصاً وبناء هيكل النار — الى تقادم بشرية ، ولكن يظهر بأن هذه العادة غدت امراً رمزياً منذ تأليف اقدم النصوص .

ووسائل النسلية شديدة التنوع ، ومن اكثرها اعتباراً لعبة الزهر التي يفضلون اسناد

محاولاتهم فيها على الرقم ٤ . ويستهوون كثيراً سباق العربات التي تجرها الاحصنة ، هذا السباق الذي لا يدخل دوماً ضمن نطاق الطقوس الدينية . وتشمل حفلات الفرح رقصاً يؤديه الرجال او النساء على انغام الغناء والموسيقى . ومن آلات موسيقى ذاك العهد الدف والعود والمزمار . وابتداء من عهد البراهمة يأتون اكثر فأكثر على ذكر المهرجين والممثلين والبهالين وناقري الدف وعازفي المزمار .

وعند انتهاء الحياة تأتي طقوس الجنازة . فهم يقومون باللباس وتزيين الميت ثم يأتون به في موكب الى حيث ستحرق جثته ، اما محمولاً على الاكف او على عربة يشدون اليها غصن شجرة يمر على الارض ليمحو آثار ارجل الاقرباء الذين يكونون قد تقدموا الجثة . وعندما يصلون الى المكان المعين يجرون للميت ، ولآخر مرة ، اعمال التزيين والتنظيف ثم يضعونه فوق كومة من الحطب . وتجلس امرأته بالقرب منه ثم يدعونهـــا للنزول (وهي ستحرق حقاً معه في الازمنة اللاحقة) وقبول شقيق زوجها المتوفى بعلاً لها . ويضعون بجانب الجثة اشارات الفئة التي ينتمي اليها : قوس مكسور لأحد أفراد الكشتريا ، وادوات عبادة ان كان من البراهمة . واخيراً يحرقون مع جثة الميت تيساً او يضحون بقرة . ويقومون في فترة الحزن التي تلي الجنازة بسلسلة افعـال تطهيرية (استحمام ، صيام ، تزهد الخ ...) ، ثم يجمعون العظام المحروقة ورمـــاد الجثة ويطمرونها في حفرة يغطونها بالاتربة او الحجارة او باقامة بناء للذكرى . وهذا مـــا يستدعي ايضاً حفلة تتبعها طقوس تطهيرية ، وهم لا يتناسون الاموات ، بل يقدمون لهم تقادم يوميـــة ويقيمون لهم طقوساً احتفالية في بعض المناسبات (ولادة ، زواج الخ) . وتقلب طقوس الدفن هذه رأساً على عقب اشارات الطقوس العادية وتأخذ اللون الاسود لوناً اساسياً .

وهذا الوصف الموجز لحيـاة الاسرة والمجتمع يشير اشارات عدة الى قوانين وعادات يشترك فيها الهندو — اوروبيون في مناطق شاسعة جداً . وهناك خصائص تنتسب الى ايران . وهكذا فان الحضارة الفيدية هي جزء من كل يصلها بحضارتنا ، ولكنهـا مع هذا تبدو منذ ذاك الوقت مختلفة جداً . ونلمس من خلال النصوص التي عرفتنا بمبـادئها الأساسية كثرة في الطقوس السحرية وتقدمة الذبائح . وتكوّن هذه الطقوس لحمة الحيـــاة القروية او الرسمية وسداها ، وهي تهيمن عليهـــا وتسيرها اكثر فأكثر نحو شكل محدود وتوجهها نحو قيود وقوانين تزداد مع الأيام دقة وحصراً .

٣ — المدينة والريف

كانت مدن (يور Ur) الدازا تتألف من مجموعة منازل تملكها اسرة واحدة ، تتجـ اور داخل حوش تحيط به الأوتاد . وقد تحمي ايضاً بعض هـذه البيوت حفر او كوم من التراب . ولا يبدو بأن الآريين قد غيروا كثيراً في هذه المساكن بل اكتفوا على ابعد تقدير بتطويرها وذلك

بتوسيعها وزيادة عدد اكبر عليها من البيوت والدكاكين والمباني المعدة لاستعمال الجمهور والجماعات وذلك تبعاً لنمو التجارة واطراد الحضارة .

وتبدو المباني بدائية إن نحن صدقنا المعلومات التي تقدمها لنا النصوص التي تشرح لنا هيئة هذه المساكن (شالا) ودور العبادة (غريها ، أغارا) . ويفرض هذا البناء القيام بأعمال تمهيدية عدة كانتخاب الارض استناداً الى نوعية التربة ولونها وطعمها ورائحتها. ويقرر يوم البدء بالاعمال تبعاً لتخمينات المنجم . وبعد ان ينتخبوا الموضع يحددونه على شكل مربع او قائم الزوايا ، ثم يحفرون الارض وينظفونها بمكنسة (ادوها) ثم يقسمونها بصورة تسمح للمياه ان تجري بموجبها بصورة طبيعية الى شمال غرفة النوم ، لذا يعدون بعض الحفر توصلاً لهذه الغاية. وأخيراً يحسبون الحساب لمطبخ في القسم الشمالي — الشرقي وردهة اجتماعات حيث يجتمع رب الاسرة مع ذويه او يستقبل الضيوف .

عندئذ يبتدىء البناء . ولا يدخلون فيه آجراً او حجراً ، أقله في الاعمال العظيمة . ويحفرون في أول الأمر تسعة ثقوب (غرتا) يبلغ عمقها حتى الركيزة يركزون فيها تسعة أعمدة (ستمبها او ستهونا) من خشب الادمبرا . وتوضع ثمانية من هذه العمد ابتداء من الواجهة التي تشرف على الشرق وتتتابع من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية . ويحمل العمود التاسع اسم «العمود الملكي» (سثوناراجا) ، ويقام آخر ما يكون في وسط (؟) المنزل . ويختلف عدد الأبواب كما تختلف وجهتها ، ولكن لا يجوز قط ان يكون المدخل من الجهة الغربية ، كما يمنع منعاً باتاً ايضاً فتح بابين على نفس النمط حتى لا يستطيع المرء« اجتياز البيت بنظره » ، واخيراً يعدون العتبة ويجعلون للأبواب دفوفاً ومصاريع . وتتكون الأجزاء المرتفعة من عوارض خيزران (فمشا) . وتشد هذه العوارض بحبل الى أوتاد الأساسات ويوجهونها من الغرب الى الشرق في دور العبادة ، ومن الجنوب الى الشمال في المساكن الاخرى . وهناك حواجز (كدي) تفصل بين الغرف وقد تستعمل كجدران . ويستند قسمها الأعلى الى العوارض . ويحمل هذا الكل سقفاً من القش ينتهي على شكل ياقة (ستوبا) .

وفرش المنزل في غاية البساطة كما هو البيت . وهو يتألف خاصة من مقاعد تكون أحقرها مساند من عشب . اما مقاعد العبادة فهي من الخيزران . ويظهر بأنهم ركزوا فيها قطعاً من الخشب او شدوا اليها قدداً من الجلد . وقد يطلون أحسنها بالذهب ، ويصنعون بعض المقاعد ، إن كانت للآلهة او للملوك ، من الخشب وقد يحفرون عليها الرسوم . ولكن لا نجد في هذا العهد التنوع الذي سيصفونه لنا بصورة دقيقة في الأزمنة اللاحقة .

وبالقرب من المسكن يعدون مستودعاً للماء يسندونه الى اربعة حجارة . ويسكنون القطيع (البقر والثيران والعجول والاحصنة) في البيت او في اصطبلات مجاورة ويعودون به الى ذلك المكان كل مساء مع الاولاد . وهناك يسكن الخدم ايضاً .

ولدور العبادة هندسة شبيهة جداً بالهندسة التي وصفت أعلاه، ولكن هناك بعض الاختلافات مع هذا. وتعد هذه الدور لإيواء من يقوم بالطقوس وزوجته والجماعة التي يحتاج اليها، والحيوانات والأدوات الضرورية للعبادة. ويعدون في هذه الامكنة ردهة (سالا) للحضور، وأثماراً لإعداد الأطعمة الطقسية التي يكون أساسها اللبن، وغرفة لزوجة القائم بالطقوس، وحجرات للاستحمام الديني تسورها حصر، وغرفاً صغيرة للتقادم، وجناحاً مخصصاً لطقوس الاموات، وحجرتين صغيرتين مربعتين تتصلان معاً تصبح احداهما مسكناً لمن يقدم العبادة والثانية موضعاً للنضح، ثم رواقاً مخصصاً للعربات تحيط به حصر تمتد من عمود الى عمود؛ ومقابل هذا الرواق يبنون « المركز » (سادس) وهو قائم الزوايا تعلوه ثلاثة سقوف متتالية.

واحدى الحفلات الاساسية التي تحتم اقامة مثل هذا البناء الديني هي ذبيحة الحصان (اشفميدها) التي أتينا على ذكرها والتي يرتقي اصلها كما يظهر الى زمن اقامة الآريين في ايران، وقد يكون ايضاً اكثر قدماً. ولمراسيم تقدمة الحصان ابهة خاصة اذ لا يستطيع ان يقوم بها الا الملك، او احد افراد الكشتريا الذي تقبل البركة الملكية، او « سيد الارض ». والبناء قسمان عظيمان. فالجزء الخارجي قائم الزوايا ويحتوي على غرفة لمقدم الطقوس، وحجرة استحمام له، وحجرة اخرى لزوجه، وهيكل النار للسيد، وموضع تسند اليه الجرة الطقسية (أكها). وتحيط الاوتاد بالقسم الثاني الذي يحتوي على الهيكل (اغني — كشترا). وعلى طول جهة السور الكبير الشرقية ارتفعت احدى وعشرون ركيزة شدت اليها الحيوانات التي أعدت للتقدمة والتي انتخبوها من الماعز او البقر. وهيكل النار، كما الحال في سائر امكنة الذبائح، هو من الاجر ويسبب بناؤه — وغالباً على شكل عصفور — الى اقامة طقوس دقيقة جداً ابتداء من جمع الخزف حتى وضع النار باحتفال مهيب. ولهذا الهيكل خمس ركائز من الآجر (١٨٠٠٠ قطعة!) وقد علق على احد جدرانه رسم من ذهب يمثل رجلاً، وهذه ذكرى للذبائح البشرية القديمة.

وارتدى السكان في اول الامر جلوداً وثياباً من صوف، نسجوها من شعر الماعز. وسرعان ما اضافوا الى هذه الاقمشة ثياباً من حرير وكتان وقطن وقنب وقد صبغت باللونين الاصفر والاحمر. ويتزينون بحلى يضعونها في جيدهم واذنهم وكاحلهم، ويدهنون شعرهم بالزيت ويستعملون المشط. وتجدل النساء شعرهن اما الرجال فيحبكون شعرهم بأشكال مختلفة وهم يدعون لحاهم تنمو مع انهم عرفوا الموسى وكان من المتداول جداً قصها او تخفيفها.

الديانة

يعرف المرء مما تقدم الى اي حد تغلغلت الديانة في حياة الفرد والمجتمع الفيديين. وللقيام بأعمال العبادة على المرء ان يتقيد بقواعد وتقاليد في غاية الدقة — عدا العادات السحرية الكثيرة العدد. انها ديانة معقدة تعقيداً عالياً لا نجد فيها الا آثاراً طفيفة من عبادات « اولية » كالطوطمية او المبدإ النباتي او الفتيشية. انها حلولية واسعة تخضع فيها الالوهية

لارادة الانسان الذي يؤثر عليها بأعمال الذبيحة او التقوى . وهي تستند على ميثولوجية تكثر جداً آلهة زونها . ان زعيم الآلهة هو اندرا الذي قد يكون في البدء حارس احدى القبائل المنتصرة . ويرمز الى طبيعته المحاربة والمظفرة الثور الذي يمثله . ويضيفون اليه صفة شارب السوما وهذا ما يشده بعرى وثيقة الى الذبيحة .

والفجر هو الربة الميثولوجية ، تمثلها بقرات ترتدي ثوباً وهاجاً والجلد (دياوس) والارض (برتوي) هما زوجان . وبقربهما نجد الآلهة الشمسية : سوريا وبوشان وفشنو ومترا وفرونا ، وهي آلهة قديمة العهد جداً تتصل اسماؤها وخصائصها بآلهة الزون الايراني كما ورد في الافسته . وتثبت هذه الحقيقة بنوع ادق فيما يختص بميترا وفرونا . ويعتبر هذا الاخير حارس النظام ، وإله الكون وينبوع كل حياة وخير . وهناك بصورة ثانوية آلهتي الزوبعة ، رودرا وشيفا ، وقد تميل شخصيتاهما نحو الاتحاد فيحتلان اذ ذاك المنزلة الاولى وتظهر شخصية سيفا بأشكال متعددة : وتزيد آلهة الرياح ، فايو وفاتا والماروت ، وآلهة المياه والانهار — التي ترمز اليها الحية بعض المرار — هذه المجموعة الربانية التي يجب ان تدخل فيها ايضاً الشخصيات التي تمثل الاغني والسوما . ويطلقون على هذا الاخير لقب برجاباتي ، سيد المخلوقات الذي سيصبح بعد قليل وحدة خلاقة وحامية جميع الخلائق الحية لا بل العالم بأسره . وهناك اخيراً جموع من الارواح الهوائية التي تكمل زون هذا العهد الاول.: الربهو ، والاسورا ، والغندهرفا ، والاباساراس ، والركسهاسا وكلها بقايا معتقدات شعبية تعادي الذبائح معاداة شيطانية . ولا تزال هذه الارواح ترافق حتى يومنا هذا الآلهة الكبار وتمتزج في كل الاساطير الهندية . ومنذ البدء ظهرت بمظهر الانسان ، وان هم ألصقوا بها مظاهر حيوانية ، يبقى سلوكها مع هذا شبيهاً بسلوك الانسان .

وقد ينتمي هؤلاء الاشخاص الى اساس من المعتقدات الهندو — اوروبية كما تعود اليه الاساطير التي يلعبون دوراً فيها . ولكن مقارنة هذه الامور مع المعتقدات الايرانية هي اشد ثبوتاً ، وهكذا نستطيع ان نقارب اسماء اهورا وميترا وفايو وفريثرغنا الايرانية مع اسماء اسورا وميترا وفايو وفرترهان الهندية . ويوافق ايضاً نبات هاوما السوما ونجد في كل من الديانتين عدداً من الافعال والتقاليد (عبادة النار ، تقدمة الحصان الخ) . وهكذا فبنسبة ما تتصل ايران بالوحدة الاوروبية وتمت الهند بايران يتأكد لنا بكل وضوح بأن الهند هي العضو الذي يقع في اقصى شرق المجموعة الاوراسية الشاسعة .

وتجاه هذه المعطيات الدينية التي تحتل المركز الرئيسي فقد قل جداً اهتمامهم بالمسائل الكونية ومصير الانسان . واعتبرت الفيدية مسألة الخلق امراً لا يرقى اليه الشك ولكنها لم تسع مع هذا لاختراق مراحله ، بل نظرت اليه كأنه عمل محترف او نتيجة مسألة تقنية ، او صنع فيسفاكرمان ، مهندس الكون . وتختلف كثيراً المعلومات التي تمت اليه وقد ينسبونه ايضاً الى ذبيحة بوروشا ، الكائن الكوني والاولي .

اما مسألة جوهر النفس فهي مذكورة في اقدم النصوص بصورة بدائية ولن يتسع مداهـــا الا منذ عهد الاوبنيشاد . انها مرتبطة بمشكلة الموت . ويقول الجميع بالحيـــاة الاخرى كأمر طبيعي اذ تفتح امام الاموات ثلاث طرق : انهم يتحدون بالمياه والنباتات ، او يحيون بهدوء في مملكة يسيطر عليها ياما ، وهو اول من مات ، او اخيراً يعيشون في عالم واحد ولكن كل على حدة . ويظهر بان مسألة انتقال الانفس (سمسارا) الذي هو ضرب من التقمص لم تكن قـــد اصبحت عقيدة بعد، اذ ان النظريات التي ستحظى بالكثير من الاهمية منذ القرن السادس ق.م. لم تكن بعد الا في مهدهـــا . ونتيجة الذبيحة الفاعلة هي اهم بكثير في نظر هؤلاء الريفيين الذين يأملون بواسطتها أزدهار مزروعاتهم وهبوط الامطـار المخصبة وتأمين حراسة مواشيهم ومختلف دلائل نجاح حياتهم الزراعية والصناعية . انهم يهتمون برفاهية الاحياء اكثر بكثير من اهتمامهم بمصير الاموات . ومع هـذا يلمس المرء ايمانهم بمبدإ مكافأة الاعمال في عالم غير عالم الاحياء هذا : فالسماء هي عالم الاعمال الصالحة ، والجحيم هو مستقر الاعداء والكفرة . وتجري الدينونة بواسطة ميزان او امتحان النـــار وتتحقق بآلام وعذابات جسدية . ويدعون الموتى « الآباء » (بيتري) وهم يساوونهم بالآلهة الصغرى ان هم احرقوا ودفنوا وفقـاً للطقوس . وقد رأينا اعلاه بأنهم يقدمون لهم عبادة ضمن الاسرة لا بل وبعض الطقوس الاحتفالية ايضاً .

ومع الافعال الدينية نجد تقاليد سحرية تم انتقالها من الخلف الى السلف بصورة شفوية وسرية قبل ان تحرر نصوصها بزمن طويل ، هـذا التدوين الذي لا يرتقي إلا الى نحو ٦٠٠ او ٥٠٠ سنة ق. م. وتعنى هذه التقاليد السحرية بجميع اعمال الحياة الهامة كتشييد المنزل، وانتخاب الزوجة، وتوطيد الحب الزواجي ، وصيانة القطعان وتكثيرها ، والربح في الالعاب، والنجاح في التجارة، والنصر في الحرب الخ ... وهي تستعمل خاصة العبـــارات المنمنمة (منترا) ، والتحويل الى بعض الاشياء والحيوانات ، واخيراً تعاويذ وطلاسم تؤمن حياة طويلة ، وتشفي من الامراض او تقاومها ، وتبعد المؤثرات الشريرة ، وتأتي على الهموم والهواجس ، وتجلب محبة الشخص الحبيب الخ ... وكثيراً ما يلجـــأون الى العرافة وهم يستنجدون لذلك بالاحلام ، واشارات النجوم ، والدلائل التي يلاحظونها عند تقديم الذبيحة (اتجاه دخان النـار ، حركات الحيوان) الخ ... ويدخلون في السحر بعض الضروب التقشفية كمراقبة التنفس ، والتسبب في العرق ...

وفي عهد يحددونه تقريبياً حوالي أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق. م. ظهرت عقلية جديدة او بالاحرى استتبت فكرة كانت قد تطورت تطوراً جيداً . وتحتـــل الذبائح والتقادم المركز الرئيسي وترافق كل عمل مهم من حيـاة الفرد او المجتمع . فهي التي تحفظ النظام العام وتصبح الواجب الاول لكل انسان ، إذ تعد كدين يجب فرض تأديتـه نحو الآلهة . وهي التي تضفي على الكاهن سيطرة كلية . وللاحتفاظ بهذه السيادة يستغل البراهمـــة بعض الوسائل لإبعاد هجمات الشعب المحتملة والتي تساعدهم على حصر الامور المقدسة بيدهم : فهم يلجـأون الى العبادات التقشفية ، وينسجون حول معارفهم جواً سرياً ، ويتخذون احتياطات دقيقة لإعلان

إيحاءات الآلهة ، ويبقون عمداً على الغموض في بعض الدروس التي يلقونهـــا ، ويفرضون على تلامذتهم عدم البوح بالاسرار . ومع هذا فانهم يقاومون التعاليم الجافة التي تتعلق بالذبائح والتقادم ويتشبثون لأول مرة بالمبادىء الميتافيزيقية (الماورائية) ومع احتفـاظهم بالزون الفيدي فانهم أوضحوا فكرة الكائن الواحد ، وحدوده بقولهم هو الحقيقة الوحيدة في العـــالم وهو إله كلي القدرة يشمل سلطانه الكون بأسره . ويحمل هذا الكائن اسم براهمـان (اسم نكرة) . وتمت النفس الفردية (أتمان) الى الجوهر نفسه . وفي « الدروس السرية » او الاوبنيشاد تظهر هـــذه الوحدة الجوهرية بين النفس العامة او براهمان والنفس الفردية او أتمان : « وانت ايضاً تكون هو » تقول الاوبنيشاد للمؤمن محققة والحالة هذه سبقاً عظيماً في التطور الفلسفي . وتحدد هذه النظرية المسندة الى وحدة العالم المجسمة في وحدة الفرد المبادىء المنطقية الميتـــافيزيقية (او الماورائية) وتتطلب من ثم حلولاً لمختلف المشاكل المطروحة ، لأنه إن كانت هذه الوحدة حقيقية فكيف نفسر وضع الانسان وويلاته ؟ وتنسب الاوبنيشاد المصـــائب الى الفعل (كرمن) . فضرورة القيام بالأعمال تولد الكنه الجسدي ، الذي بدوره ينتج العمل . وهكذا نجد حلقة تسعى الاتمان عبثاً للتخلص منها لتعود الى حالتها الحقيقيـة اي لتذيب نفسها في البراهمان . ولأول مرة يظهر سياق المبادىء هذه التي لا يبحثون لها عن سبب آخر وتصبح من ثم نظاماً : انه انتقـال الارواح او التقمص (سمساره) الذي لن يعرف نهاية إلا بالتلاشي في الكل الإلهي (براهمان) . ولكن العودة الى البراهمان لن تتم إلا بعـــد عدد من الولادات المتعـاقبة . وكل مرة تظهر على الجسم دلائل الموت تولد حالاً الاتمان مرة ثانية او تبقى منتظرة في العـالم القمري الى ان تتلاشى كلياً فاعليتها فتستطيع إذ ذاك الاتحاد جوهرياً في البراهمان . ويعتبرون هذا الامر الخلاص النهائي (موكشا) . وهكذا وضعت المبادىء التي ستبقى الى يومنا هذا شغل الفلسفة الهندية الشاغل . ونتائج هذا النظام بالغة الاهمية : إذ بعد تقرير مبدأ تجزئة المجتمع الى طبقات يغدو منطقياً ان لا تنسب قوة الخلاص نفسها الى هؤلاء واولئك . وكيف نفسر هذا الفـارق إلا اذا اعتبرنا بأن المقدرة على العمل قد ضعفت بدرجة مختلفة تقل او تكثر : وان ولد شخص في طبقـة البراهمة او فئة الكشتريا فذلك يعني بأن اتمانه قد أتمت عدداً من الولادات التي ضعفت من قوة الكرمن وهذا يعني ايضاً بأنه يقترب من الخلاص النهـــائي . وهكذا تسعى براهمانية هذا العهد لتحديد معطيات مشكلة التقمص ، وتجعلها تتلاقى مع حالة اجتماعية مستقرة بدل ان تجد لها الحلول . ونتيجة لهذا التعليم يعترفون بأنه كلما هوى المرء في سلم الطبقات الاجتماعيـة وغدا من ثم أشد ابتذالاً واحتقاراً كلما صعب ان يتلاشى الكرمن الذي يكبله في سلسلة الولادات المتعاقبة . وإن أتينا على ذكر حالة بعض الافراد اليائسة عرفنا بصورة افضل مدى الاصلاح الذي اقترحه بوذا شاكيمن . وقد ورد هذا الاصلاح في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الانتفـــاضات في العقيدة البراهمانية نفسها . واعتبر شاكيمن ، كما اعتبر معاصروه ، بأن السمساره مشكلة أساسية إذ لا تمت فقط الى مصير الفرد بل ايضاً الى التكوين الاجتماعي بكليته . وهكذا اخذ بوذا يحل هذه

المشكلة بشعور انساني عميق ومتناهٍ في اللطف وهو يتعارض وقساوة البراهمة التي لا ترحم ، ويعتقد بأن قيمة الفرد لا تستند الى قوة افعاله بل الى مقدرته الشخصية في مجال الرحمة والمحبة والشفقة . انه لا يهتم كثيراً للزون البراهماني، وهو يبقيه على حاله للذين يبشرهم ، وهو لا يعنى إلا بألم الانسان ويسعى لإيجاد داء لهُ . وهو يشرع بتفكير منطقي يستند الى امور يأنف منها كل كائن ذي احساس : الألم والموت . فالوجود ، كما يقول ، يحمل الالم في طياته ، وينتج الالم عن رغبة لا تتحقق ابداً ، وتتأتى الرغبة عن الجهل الروحي الذي يغرر بالمرء فيجعله يعتقد بأن الظاهر هو الحقيقة . وبالاتيان على هذا الجهل تتلاشى الرغبة وينعدم في الوقت نفسه الالم . ولا أهمية للموت ان لم تنتج عنه ولادة ثانية تعيد النظام الاولي الذي نجبر من جديد ان نأتي عليه حلقة حلقة . وللوصول الى الغاية القصوى ، « النرفانا » ، الذي ينتهي بها كل شيء ، يجب ان نتبع طريقاً فيه التوازن الكلي الذي لا يقودنا الى التقشفات المغالى فيها والتي يمارسها بعض النساك ، ولا الى الملاهي الجموح التي تعرقل سير الروح، انه « طريق وسط » يطبقه كل على نفسه ويتطلب من رجال الدين اكثر مما يفرض على العلمانيين ، ولكنه يستند الى محبة الغير وعدم الاكتراث بالذات والشفقة نحو الجميع

وكان مؤسس العقيدة الجاينية معاصراً لهذا العهد الذي أحدث تجديداً في المجال الفلسفي . وقد أتى بمبادىء ، إن قيست بالتعاليم البوذية، تظهر اقل تناغماً مع الرغبات الشعبية. والحلولية التي تشمل الطبيعة بأسرها هي أساس ديانة مهافيرا التي تستند اكثر ما يكون على اللاعنف (أهِمسا) ، ومنع إيقاع الضرر بالحياة مهما كانت مراحل تطورها .

وهكذا نرى بأن هذا العهد الذي يرتقي تقريباً الى القرن السادس ق. م. هو في غاية الاهمية لفهم الحضارة الهندية . وفي هذه الفترة بدأ المجتمع يستقر ضمن اشكال ستتسع فيما بعد ويستند عليها التطور اللاحق . وظهرت أسس الفلسفة الهندية نفسها التي ستضفي على الهند اهم خصائصها. واخيراً فان نشوء البوذية مهد طرق السيادة للعهد اللاحق الذي سيغدو فاتحة تطور فني وادبي يكون له صدى صاعق في كل مناطق النفوذ الهندي اعني آسيا بأجمعها تقريباً .

العلوم

تبعاً لهذا التطور الديني والفلسفي بدأ يتسع مدى المعارف التي لها الصفة العلمية البحتة مستمدة حيويتها من الرياضيات وعلم الفلك . وهكذا اذ كان الشعب يكرم زونا تؤلفه اغلبية من قوى الطبيعة المؤلهة اخذ « العالم » الفيدي يقسم الكون ثلاثة اقسام — ويميلون الى الاعتقاد بأن هذا التقسيم الثلاثي يتوافق مع وجهة نظر ايران الافستية . فالارض اولاً ، وهي على شكل قرص الشمس وتستند الى المحيط ، ثم السماء او الجلد حيث تسبح الغيوم وتقيم الارياح وتقطن البروق ، واخيراً السماوات العليا التي تحتوي الشمس والقمر والنجوم والسيارات. وتكون الشمس ، وهي على شكل دولاب ، القوة الفاعلة الكبرى في هذه المنطقة ، وهي التي تخلق الليل والنهار والشفق والشهر والسنة ، وتسبب هبوب الرياح وتبقي على التوازن بين النجوم

وتضيء وجه القمر . وتدور دورتها على اثنتي عشر مرحلة ، يمثلها اثنا عشر حيواناً ؛ ويعبر عن هذا الامر تقسيم السنة الى اثني عشر شهراً او اثنتي عشر شمساً . ويظهر جلياً بأن هذه المعلومات تعكس حقائق أشد قدماً، اذ كانوا قد تحدثوا عن الاثني عشر شهراً شمسياً فهناك ايضاً ثلاثة عشر شهراً قمرياً . وحددوا ايضاً بدء السنة عند المنقلب الشتوي ، ولكن يحتفلون بهذا الحدث عند ظهور الربيع . وكان لهم في اول الامر ثلاثة فصول ثم غدت خمسة : الشتاء والربيع والصيف والامطار والخريف . وقسموا غالباً فصل الشتاء قسمين وعـــدوا كفصل سادس الفصل الذي يسبقه مباشرة ومن خصائصه الانداء .

وتعد ملاحظة كسوف الشمس وخسوف القمر متممة لمراقبة المنقلبـــات والاعتدالات . ويعزون هذه العوامل الى اسباب خرافية . وهم يعرفون الكسوف والخسوف الكليين ووجود سبعة وعشرين كوكباً سياراً يضيفون اليها الشمس والقمر . وهم يكتشفون الجهـــات الاربع الرئيسية بواسطة آلة خصوصية هي الغنومون .

والدور الذي يلعبه عالم الفلك – وقد احتكر النساك هذه الصنعة – هو عظيم جـــداً اذ يشترك في كل الذبائح الكبرى : فهو الذي يعين الوقت المناسب لتقدمتها ، وهو الذي يحـــدد انواعها عند تبدل الفصول وعند عودة بدء السنة . وهذه الذبائح هي الاكثر اهمية ، خصوصـاً ذبيحة الربيع التي تفرض تقدمتها استحمام المرء وفقاً للطقوس .

وقد عم معطيات علم الفلك مبادىء هندسية وحسابية مع انه من الصعب فرزها عن فيض المبادىء العلمية التي تحيط بها . اتسع كثيراً مدى اسماء الارقام وعرفوا نحو ثلاثين اسماً اساسياً: واقروا النظام العشري ، معتبرين رقم المئة كالوحدة فيه . ويبدو بأنهم اهتموا جداً لايجاد كيفية يقسمون بموجبها رقم الألف ثلاثة اقسام متساوية . ولكن ازاء هذا النظام الذي يستند الى رقم ١٠ نعرف انظمة أشد قدماً : خصوصاً وحدة الوقت الذي تتخذ لهـــا اساساً الرقم ١٥ والتي تجزىء مدة النهار الى $^{١٥}/_{١٥}$ ($^{١}/_{١٥}$ = برانا) .

وعرفوا علم النبات ومارسوه اذ يمت بصرى وثيقة الى العـــالم، ومن الضروري الوقوف عليه لتهيئة الذبائح ، وتركيب الادوية الخ. ويعتبر علم النبات مدمـــاكاً في صرح حب الطبيعة الذي لم تنفض قط الحضارة الهندية يدها منه والتي زادته مدى شروط الحياة الريفية او التقشفية . لذا نرى منذ هذا العهد القديم بأنهم اعاروا اهمية قصوى بتحديد الاسماء النباتية ، الاشجـــار والاعشاب ، وسعوا جهدهم لتصنيف هذه الخلائق . وفي الحالة الاخيرة اخذوا بعين الاعتبـــار علاقة النبات بالمبادىء الكونية والدينية اكثر من نظرهم الى خصائصه الذاتية .

الفصل الثالث

خصائص الحضارة الصينية القديمة

على نقيض حضارة الهند التي كانت لها علاقات مع الغرب «فان الحضارة الصينية قد تطورت وهي تدير ظهرها الى عالم البحر الابيض المتوسط » (هنري مسباروا) . ولم يكن لها معه الا علاقات غير مباشرة بواسطة الجماعات السيبيرية وقد اتجهت عمداً وقصداً نحو المحيط الهادىء، هذا العالم الذي يختلف كلياً عن العالم الذي حقق تطورنا الثقافي (التطور الاوروبي) .

وبدل طباع الهند المتعددة والمتقلقلة والتي قد يناقض بعضها بعضاً تقدم الصين تلاحماً متيناً يستند بقوة الى وحدة سكان الصين العرقية . وغدا نظامها الاقطاعي ثم الامبراطوري عامل وحدة ايضاً في ثقافتها ونظمها اذ فرض بشكل مستديم مجموعة متناسقة من الافكار والتقاليد .

وتهيمن الروح الصينية على هذه النظم والآراء ، وتحب هذه الروح الدقة — حتى عندما لا تستند الا الى أمور خرافية — وتقدرها حق قدرها في المكاييل والموازين والمقاييس وفي التواريخ والارقام ، في المسافات وفي المبادىء العلمية . ويقترب منطقها من منطق حضارات حوض البحر المتوسط الابيض . فالنظام الصيني هو أساس الحرية ، والسيطرة على الذات — التي توافق معرفة العالم — هي في الحقيقة حكمة وطمأنينة في الحياة . وتعطى هذه الحكمة لمن عرف كيف يهذب نفسه ويتحرر بواسطة أمور تقليدية قديمة : اذ وراء واجهة أدبية وتقليدية تحصل حرية المرء بصورة سرية ولكن كاملة الاستقلال. ولا نجد حياة روحية متقلقلة : اذ لا يعترف الصيني للآلهة بأي تفوق . فهي كائنات مجردة ؟ بعيدة قد تثير السخرية ، وذلك لأن الصيني بطبيعته يميل نحو الكفر بكل شيء وذلك بصورة سمجة وضاحكة . وهو يعتقد بأن لعبر الماضي وأمثلة الجدود المتوفين أهمية أكبر بكثير ، اذ للتجارب التي تمت في القرون الغابرة قيمة عظمى — وهو يبني سلوكه وحياته على هذه السوابق « التاريخية » والجديرة بكل احترام . لذا فهو يعشق جداً كتب حياة الاقدمين وسير أعمالهم التي، على غرار كتاب «حياة الرجال العظماء »لبلوترك؛ تقوده في الحياة مهما بلغ عمره وجنسه وحاله ودوره في المجتمع ، وهو اذ يحذو حذوهم يكون

(١) يستند هذا الفصل على نطاق واسع الى نظريات مرسيل غرانه .

أكيداً بأنه يبقى جزءاً من كل ينتمي اليه ، اذ الفرد بعرفه لا يعيش وحيداً ، وهو لا ينفصل عن الطبيعة ولا عن المجتمع الانساني ؛ والهدف الذي يصبو اليه هو رفقة حسنة وصداقة — تستندان الى الآداب واللياقات — تؤمنان سلاماً سمحاً يغدو وليد النظام . وتتلخص غايته بأمرين : فهم الغير والوفاق معه . وهكذا يحصل حسن تفاهم الانسان مع أخيه ومع الطبيعة ، هذا التفـــاهم الذي ينتج النظام الخيّر . ومع هذا لا نجد صلابة ، ولا قوانين دقيقة متحجرة ، ولا موجبات مطلقة : بل أموراً حسية ولكنها غير محددة حتى تأخذ الحياة مجراها « وتلعب لعبتهـا » من خلال اللياقات والتقاليد .

وتهيمن فكرة « اللعبة » على النشاط الفردي والجماعي . وعليها تستند الطقوس التي تجدد ، دون انقطاع ، مختلف مراحل الحياة الجماعية واطوار التاريخ وتقلبات الزمن . وتتنـاغم هذه الفكرة مع قواعد علم الطبيعيات الصيني الذي يغدو العالم الانساني صورة طبق الاصل عنه .

ويستند علم الطبيعيـــات هذا الى مبدأين اساسيين : الوقت والمدى . ويقسم هذان اقساماً متساوية لها في الجوهر . فالمدى ، اي الارض ، هو محصور ضمن مربع ، ويجزأ اجزاء مربعـة الشكل ايضاً : الحقول والمدن وهيكل التراب والمجالس والاملاك الملكية والامبراطورية بأسرها . ويوجهون هذا المربع بشكل يتلاقى معه كل ضلع مع احدى الجهات الرئيسية وأحد الفصول . ولكل ضلع لون معين : فهو اخضر شرقاً (الربيع) واحمر جنوباً (الصيف) وابيض غرباً (الخريف) واسود او اصفر شمالاً (الشتاء) . ويفصل المدى ، الذي عينوا له هـــذه الحدود وتلك الجهات ، اجزاء اجزاء يصبح وسطها المبدئي من املاك العـاهل . وتعرض هذه النظرية بجمل القواعد الاجتماعية وتحفظ تناسق الدولة في مختلف اجرائها : وبموجب طقوس محددة ومناسبة يحتفظ الوسط وحده بقوى المدى كله ، وعلى الاجزاء التي على الجوانب ان تأتي في أوقات معينة — بواسطة ممثليها — لتجدد قواها لدن المدى الوسطي . لذا وجب على حكام ورؤساء المقاطعات ان يأتوا كل سنة الى العـــاصمة يقدمون تقارير عن حكمهم وادارتهم الى الملك او الامبراطور . وحسب تقليد قديم يطوف الامبراطور مره كل خمس سنوات على المقاطعات . وليوافق بين الزمن والمدى ينبع الامبراطور في عمله هذا نظام سير الشمس (شرقاً فجنوباً فغرباً فشمالاً) ويتوقف في كل جزء حسب احد فصول السنة الذي يختص به .

ويشبه نظام الزمن نظام المدى هذا . وكما يجب تجديد القوى في مجـــال المدى ، يجب ايضاً الاحتفاظ بحياة الزمن وذلك بتجديده . وتوزع مواعيد هذا التجديد على مدات غير متساوية ، ولكنها تتبع كلها نظاماً لا يتبدل : فقيام ملك جديد يلزم انشاء عهد جديد تعرف نهايته وتتوقع عودته ويعى طقسياً نهـاية تقويم أتى الزمن عليه وبدء تقويم جديد يدوم ما دامت تلك السلطة قائمة . لذا تعطي الطقوس الملك او الامبراطور سلطة احياء الزمن والمدى لصالح اتحاد المقاطعات والمجتمع الفدرالي . وتشعر هذه المقاطعات وتلك الجمـــاعات بضرورة تجدد دوري لا يستطيع

بدونه أي نظام ان يستمر . فالوقت اذن هو الهدف الطبيعي لكل أمر يريد الاستمرار ، وهذه رغبة الصينيين القصوى .

لذا لا تغدو العاصمة مركز الامبراطورية الحيي فقط، بل أيضاً المقام الوحيد للمدى والزمن. وتصبح مقدسة (حسب بعض التقاليد) ان كان لها « بيت التقويم » (مينغ تانغ) يمثل شكله بصورة مصغرة العالم : فهو يتألف من قسم أساسي مربع يمثل الارض وسقف من العشب على شكل نصف دائرة يمثل السماء. ويقيم فيه الامبراطور الحفلات لافتتاح الفصول والشهور المتعاقبة. ولهذا الغرض يدخل تحت القبة السماوية ، ثم يتجه نحو الشرق وهو يرتدي اللون المناسب ليتمم الطقوس التي تجدد الزمن في وسط المدى نفسه .

ونجد مبدأ الوسط هذا في المدى والزمن أيضاً ، والى هذه العقيدة تستند سلسلة المراتب التي اكتسبت أهمية كبرى في الصين الامبراطورية . ولكن هناك أيضاً مبدأ التعاقب والتناقض الذي ينعكس حتى على المعارك الطقسية والرقصات المتناقضة والذي قد يرقى الى تقليد اكثر قدماً . ويقوم مبدأ التعاقب هذا على أمر قوي يليه أمر ضعيف بصورة تتوافق مع مسافة ملأى وأخرى فارغة. واذ نظم الصينيون العالم على هذا الشكل ادخلوا في الاجزاء الخمسة كل الطبقات الاجتماعية مع فضائلها وخصائصها ، والظروف ، والمواقع ، واشكال الفن الخ، فحققوا والحالة هذه لكل القوى الفاعلة نظاماً لا شائبة فيه ، وقد اخضعوا هذه القوى الى ترتيب اعتبروه في غاية الدقة . وكان تلاحم هذا التقسيم المنطقي كافياً لتأمين فعالية كاملة لكل ما حواه .

ويلاقي التوافق الذي يهيمن على المدى والزمن جواباً له في نظرية « ين »و« ينغ »الشهيرة اللذين يجتمعان في« الطاو »او العالم. والى هذه النظرية يستند كنه الفلسفة الصينية. وقد فتح تحديد هاتين الكلمتين المجال واسعاً امام تفسيرات شتى . ويبدو بأن المعلومات التي تشيران اليها موجودة في مجموعة المعارف التي تسيطر عليها فكرة التناسق . ولكن لم تظهر الرموز التي تجسدها – والتي اخذوها كما يبدو من مادة علم الفلك – قبل القرن الثالث ق. م. ومع هذا غدا لهاتين الكلمتين قبل هذا العهد بقرنين خصائص تناقض بعضها بعضاً ، كما هو ثابت في« شي–كينغ» مثلاً . ولا يجب ان نتقيد في هذا المجال بتحديد مجرد او شديد الدقة يمثل لنا اموراً متناقضة «ين» اي الشمال والظل والبرد والجنس الانثوي الخ ، وينغ الذي يمثل الجنوب ، والامكنة المشمسة والحرارة والجنس الذكر الخ) ولكن علينا ان نترك ليونة كبرى في هذا المضمار ، « لعبة » تتناسب مع التفكير الصيني . اذ لا يفرق الصينيون الين واليانغ عن الحقائق الاجتماعية التي توحي هذه الرموز الى ترتيبها (مرسيل غرانه). وقد لا يكون في الامر حقيقتان تتناقضان بل رمزان متحدان يلخصان في كنههما بقية الرموز ، و « عنوانان اساسيان » يحتويان على كل شيء آخر . وهذا ما يفضي عليهما القوة والسلطة اللتين يتمتعان بهما اذ يرمزان وحدهما الى جموع المتناقضات والى التناسق الذي يكيّف العالم . ولا تجعل منهما صفاتهما التي تبدو على

طرفي نقيض عددين متنافرين ؛ بل يؤمنان بالعكس اكتمال كلٍّ تختلف اجزاؤه جوهراً وكنهاً . ويبدو الين والينغ ، وهما صلة الوصل بين المدى والزمن التي تظهر على شكل (S) كأنها مبادىء تعاقب الفصول ؛ هذا هو الاساس الجوهري للحياة الاجتماعية بكاملها . ويعود الى الرئيس ان ينشط تعاقبها ، وينعش قواها العجيبة ، وينظم فاعليتها الثنـــائية . ويمثل الين والينغ ، وهما الغريمان المتضامنان ، اختلاف الاجناس واتحـادها ، اي اساس النظام الاجتماعي ومن ثم النظام العام . فهما يعبران في الوقت ذاته عن تضاد وحدتين وعن كل يكونه نصفان. وهما لا يتعارضان إلا ليتمم احدهما الآخر ويكونا وحدة مستقلة .

وهذه الوحدة هي الطاو (الطريق ، الاتجـــاه) ، مبدأ نظام ذي فعـالية عظمى ، وقوة تنظيمية ؛ ولا تحتكر المدرسة الطاوية هذه النظرية بل هي ملك التفكيرالعام . وينتظم كل شيء في هذا المبدأ كما هو جـــار في المدى والزمن : ويحتوي الين والينغ ، وهما القسمان الكبيران ، تقسيماتعدة ثانوية لكل منها خمسة اوستة حقائق تتجرأ بدورها حسب الجهات الاربع والسمت، فيقابل الشرق مثلاً الربيع واللون الاخضر وعنصر الخشب والعلامة الموسيقية الخامسة ، ويقابل الوسط منتصف الفصول وعنصر التراب والعلامة الموسيقية الاولى الخ . وتجتمع هـــذه الاجزاء المتضامنة وتنتظم معاً لتعطي الطاو وحدته . وهكذا يفسر النظام الكوني وكل مظاهر الحيـاة مع اسبابها الموجبة . ونجد ايضاً من ثم حلاً لكل وضع وسلوك وتبديل . ويقرر الطاو التفاصيل كما يحقق المجموع ، فنظفر من ثم بالنظام الذي يهيمن على القوى العقلية الفاعلة كما يسيطر على حياة العالم ، هذا النظام الفعّال والشامل الدي يمثل هدف النفسية الصينيـة الأعظم . والطاو ، وهو الطريق والسبيل ، على علاقة وارتباط مع الطرق العظيمة الموجهة التي تنتهي الى وسط العاصمة ، اعني الى بيت التقويم (مينغ تانغ) او الى العـــامود الذي نصبوه على مفترق الطرق الرئيسية ، حيث — عند الظهر — لا يسمع اي صدى ولا يعطي ظلاً اي جسم وإن انتصب مستقيما . وهذه الصورة للوحدة المركزية التي تطفو على كل الخلافات هي ، حسب الخرافات ، صورة العالم حيث ترتفع في وسطه شجرة عجيبة ؛ والامبراطور الدي ينتصب مستقيماً في وسط العـالم هو المحور ويسيطر على الطريق (الطاو) حيث تلتقي السماء والارض . وان وجدنا في هـذه النظرية بعض المبادىء التي لاقيناها في الهند القديمة ،نر بأن الصين توصلت الى السُوط النهائي على مراحل مخملعة وبفضل قياس حسي اكثر مما هو منطقي .

وداخل هذا البـناء المتماسك أكثر الصينيون من التقسيمات التي تختلف رتبة ومنزلة وذلـــك بواسطة جداول وفهارس تحير مقاييس المقاربة فيها الفكر الغربي ولكن تستوجبها فكرة وحدة العالم الدقيقة وتضامن الأمور الذي يلعب دوره في هذا المجـــال . وتجد العقلية الصينية مداها الرحب في هذا المضمار .

المظان والمستندات

ان معظم المعلومات التي نعثر عليها هنا وهناك والتي تتعلق بهذا الطور القديم تأتينا من النقوش المحفورة على العظام أو فلوس السلاحف أو قطع النحاس ،

أو من نصوص الأدب الكلاسيكي الكونفوشياني . وترتقي أقدم هذه النصوص الى القرنين الحادي عشر والعاشر ق . م . ولكن لا يعود أصدقها من الوجهة التاريخية إلا الى فترة تتراوح ما بين سنة ٧٧٢ و ٤٨١ ق . م . ونجد معها غالباً تعليقات خاصة في القرنين الثالث والثاني . وعلى أساس هذه المعطيات سينسج بلا ملل فلاسفة وأدباء القرون القادمة دون ان يزيدوا إلا القليل القليل من الجديد . وتحوي الكتب المدرسية (كينغ) مجموعة كبرى من المعلومات المختلفة عبروا عنها بأساليب لا تقل عنها اختلافاً : أمور سحرية في « كتاب التغييرات » (بي – كينغ) ، وخطب سياسية وقرارات وتفاصيل عن سير الاعمال الادارية في « كتاب التاريخ » (شو – كينغ) ، واغاني حب وترانيم دينية وقصائد طقسية واناشيد للأعياد في « كتاب الشعر » (شي – كينغ) ، وسرد تاريخي في « كتاب الاخبار » (تش ، وان تس ، اياو وحرفياً فصول الربيع والخريف) الخ .

وهذه المستندات ادبية في مجملها ولها مسحة اكاديمية ورسمية . وهي لا تدع المجال الا قليلاً للتفكير بالاساس الشعبي ، وردة فعل الجماهير ، ولا تنقل الينا الا مظهر الحضارة الرسمي ، وكل ما يميز الارستوقراطية الصينية بما فيه مغالاتها في الدقة وتمسكها في المسائل الشكلية وحياؤها المصطنع الذي يعتبر اللياقات قوانين وقواعد . وفضلاً عن المعلومات التاريخية الدقيقة جداً التي يقدمها لنا « كتاب التاريخ » فإنا نستطيع ان نستخلص فكرة شاملة عن عقائد وتقاليد التشاو . لدا نرى في « كتاب التغييرات » ظهور مبدأي ين وينغ اللذين يكونان العالم او الطاو . وفي « كتاب التاريخ » تأكيد مبدأ الموافقة بين الانسان والعالم بواسطة العناصر والجهات الرئيسية الخ. والطقوس، اساس الحضارة الصينية، هي في عهد نموها وتطورها ، ولن توضع لها نصوص كتابية الا ما بين القرن الرابع والقرن الاول ق. م. في ثلاثة كتب رئيسية هي « طقس التشاو» (تشاو لي) ، وبي لي ولي كي . وترتقي هذه الكتب الى عهد لاحق بكثير لكونفوشيوس ولكنها تعبر عن تعاليمه .

وتهيمن على عهد التشاو شخصية كونفوشيوس (حقيقية كانت او حرافية) وخلفائه كمنشيوس (مونغ تسيو) الذي عاش في القسم الثاني من القرن الرابع ق. م. وسيون كوانغ ما بين سنة ٣٠٠ و سنة ٢٣٠ ق. م.) وتتطور الآداب الكونفوشيانية مستندة الى الطقوس وساعية لنشر وتدعيم السلام في المجتمع وفي نفوس الافراد على حد سواء . وبالمقابلة نرى مبادىء الفلسفة الطاوية تعرض في كتب ثلاثة تظهر في القرنين الرابع والثالث ق. م. وهي : كتاب الطاو والطو (لاو – تسو او طاو – طو كينغ) وكتاب تشوانغ تسو ولي تسو . وتدعم هذه الكتب سلسلة من المنشورات العقائدية التي تسعى لاحياء السلطة الحكومية بواسطة قانون جزائي. ويعتنق كتّاب كثيرون ينتمون الى مختلف العقائد الدينية « مدرسة القوانين » هذه ، التي يمثلها خاصة كونغ – سوان ينغ (ويعرون اليه كتاب تشاوانغ تسو) وبين ون تسو وهان في تسو .

وفي الوقت ذاته نجد عدة مجار فكرية اخرى : مدرسة موتي (بين سنة ٤٨٠ وسنة ٤٠٠ ق. م.) ويعتقدون بأنه مؤلف كتاب موتسيو ، ومدرسة « الحكماء » المدعوة مدرسة الاسماء ومدرسة السياسيين ، ومدرسة الانتقائيين ... وقد قالت كلها بالاصلاحات ، وبالرجوع الى الماضي السحيق او بالقيام بثورات . وهي تسند كل مبادئها الى السياسة والهموم المادية اكثر بكثير من اسنادها الى عقائد فلسفية بحتة .

وبواسطة هذه المجموعة الادبية ، المرسومة او المنقوشة ، نستطيع ان نعيد بناء صرح الحضارة الصينية . ولا يخلو هذا الامر من الخلل اذ يستعين بمظان ومستندات عقلية وارستوقراطية اكثر مما يجب ؛ لذلك لا نستطيع الاعتماد الا بصورة جزئية جداً الى الاشياء والآثار المادية .

اللغة والكتابة

اللغة الصينية لغة ذات مقطع واحد ويعبر عنها باشارات او « حروف » . وتختلف اللغة المحكية اختلافاً كلياً عن اللغة المكتوبة إذ تخضع كلياً لكيفية النغم في اللفظ . وهي فقيرة جداً من حيث الحروف الصوتية ولكنها على نقيض ذلك دقيقة جداً من حيث استعمال النبرة . وتلاقي في حالتها هذه صعوبات كبيرة للاعراب بصورة واضحة عن الفكرة المجردة . انها لا تليق قط للامور العلمية ولا تصلح لتحليل الافكار بل تجيد الحقائق المعاكسة . وهذا ما يفسر لنا جزئياً بعض تطورات الآداب الصينية التي سهلت هنا وتعثرت هناك . ولكن يستحيل فهم كنه الحضارة الصينية إن جهل المرء تماماً بعض خصائص اللغة الصينية . ويسهل هذا الامر عندما نعرف مثلاً بأن نفس الكلمة ، «وين» مثلاً ، تدل بالوقت ذاته على الكتابة والرسم والادب والحضارة .

ومع كل هذه الصعوبات بقيت اللغة الصينية لمدة طويلة لغة حضارة زاهية ووسيلة لنشرها في جزء فسيح من آسيا .

لمحة تاريخية

منذ زمن متوغل في القدم – لا نستطيع تقديره بالتدقيق – بدت البلاد الصينية وكأنها قسمان مختلفان : جزء من السهول المزروعة والتي تستثمرها جماعات من الفلاحين، وقسم من المناطق الغفل حيث يعيش صيادون على شيء كثير من البداوة . وإن نحن قدرنا بأن حكم السلالات الأشد قدماً يرتقي الى ما بين القرنين العشرين والخامس عشر ق. م. استطعنا ان نعزو الى هذه الفترة المصنوعات الخزفية المزينة « بالمشط » التي توافق بعض الموافقة زميلاتها في روسيا الجنوبية او سيبيريا . وحوالي سنة ١٧٠٠ (؟) تظهر لنا بعض المصنوعات الخزفية الاكثر تطوراً والتي عثر عليها في هو – نان (ينغ – شاو وكين – ونغ – تشاي) تقدماً حضارياً محسوساً وذلك نسبة لتحسينها التقني ورسومها ، مع ان تلك الحضارة لم تزل في طورها والخرافي السابق للتاريخ . ويعود هذا العهد كما يعتقدون الى حكم سلالة «هيا» . وتعقبها سلالة شنغ (ما بين سنة ١٥٢٣ وسنة ١٠٢٨ تقريباً ؟) . وفي فجر حكم هذه السلالة تبرز مصنوعات من الخزف (دعوها مصنوعات بان – شان في كان – سو) وقد بلغ فن تزيينها دقة وجمالاً لا نجد لهما

مثيلاً في المناطق التي نستطيع ان نقارن بين مصنوعاتها الخزفية في الطور الذي سبق التـــاريخ وبين الخزفيات الصينية التي تتحدث عنها كبلاد اوكرانيا ورومانيـــا . وبعد فترة (حوالي القرن الرابع عشر ق.م.)تظهر فجأة عاصمة شنغية : نغان ـ ينغ الواقعة في أقصى شمال مقاطعة هونان الحالية (حوالي القرن الثاني عشر ق. م.) ولها جميع الخصائص التي تتميز بها حضارة كثيرة التطور الى مبانٍ فسيحة ، وقبور ، وآثار قرابين ، وطقوس سحرية ، وأدوات عباده ، وفنون استثمار النحاس والرخام واليَشْب ، وكتابات . ويضعنا فجـأة علم الآثار وجهاً الى وجه أمام احدى عواصم الشنغ الاخيرة ، إذ لم يعثر بعد على العواصم التي سبقتها في الزمن والتي ترتقي الى حوالي ثلاثة قرون سابقة. وهكذا دون ان نقف على جميع مراحل تكوين حضارة تسترعي الانظار ، نجتاز بصورة مفاجئة من مرحلة مصنوعات خزفية ترتقي الى ما قبل التـــاريخ الى مرحلة استعمال مواد صلبة كالرخام واليشب والعظم استعمالاً دقيقاً ، ثم الى فن استثمار النحـاس الذي يتطلب أدوات خصوصية ويفتح مجالات رحبة عدة. ونصل بعدئذ الى فن للايقونات يدور كلياً تقريباً على اشكال حيوانية ويدل ، لكثرة الألغاز التي يثيرها ، على رموز ميثولوجية ، ثم اخيراً الى نوع من الكتـــابة التصويرية. سيتولد عنها رويداً رويداً نظام « الاحرف » الصينية . وتمثل لنا نغان ـ ينغ حقاً ذروة الفن الصيني القديم بما تقدمه لنا من نقوش رخـــامية وادوات نحاسية طقسية دقيقة الصنع وفائقة الجمال : ولن يتوصلوا قط في الازمنة اللاحقـة الى روعة هذه الادوات النحاسية ، كما لن يتوصلوا إلا بعد مرور قرون عدة الى مثل هذه القوس الحجرية الماثلة . وتتفق هذه الاكتشافات مع التقاليد الصينية التاريخية التي تبرز بكل وضوح أبهة وعظمة بلاط سلالة الشنغ .

ولكن لا تكتسب المعطيات التاريخية قوة ووزناً الا مع بدء حكم سلالة التشاو . وسمحت سيول المهاجرين الصينيين الذين تقدموا رويداً رويـــداً بفتوحاتهم نحو الشمال والغرب والجنوب ابتـداء من السهل الكبير ، نقطة انطلاقهم ، الى استقرار الاسر الارستوقراطية استقراراً ثابتاً . واستوطنت أسرة التشاو في وادي «وي» العالي في شن ،ى (العاصمة تشانغ ـ نغان). وعاشت الحيـاة الاقطاعية المعروفة في دلك العهد تسيرها ضرورات الانتاج الزراعي والدفاع المسلح عن مناطقها ضد هجمات القبائل شبه البربرية التي كانت تحيط بالاراضي الزراعية . وهوّت حيـــاة التقشف والجد هذه أحد أفراد اسرة تشاو (وفا ـ ونغ) فتار على آخر ملوك الشنغ في القرن الحادي عشر ق . م . بعد ان لمس منه ضعفاً ، ثم هاجمه وطعن به وأعان نفسه ملكا .

وغدا هـذا الحادث فجر عهد سيدوم قرابة ثلاثة قرون تسيطر أثناءها السلالة الجديدة على مصير وتطور الحضارة الصينية . ولم يحدث هـذا التطور دون عائق اذ لم يحصر النشاو بين يدهم السلطة المطلقة : لقد حكموا فقط أقوى مملكة في عهدهم واجبروا على خوض معارك دون هوادة ضد الامارات الثلاث الاشد قوة التي كانت تنقاسم بقية المنطقة « المتحضرة » . واتبعوا حيـــاة

إقطاعية تشبه كثيراً الحياة التي ستسيطر في الغرب أيام نظام الفروسية. واصبحت تلك الحروب حروب إقطاعة ضد إقطاعة ومعارك إقطاعي ضد إقطاعي تتبعها سكينة التابع في بلاط السيد المتبوع في وسط أنيق يشبه بلاط القرون الوسطى .

وسنة ٧٧١ ق . م سقطت عاصمة التشاو بيد « برابرة الغرب » أثر هجوم صاعق شنوه على حين غرة . واجبر التشاو على التقهقر نحو هو — نان وفقدوا في مقرهم الجديد صفاتهم الحربية

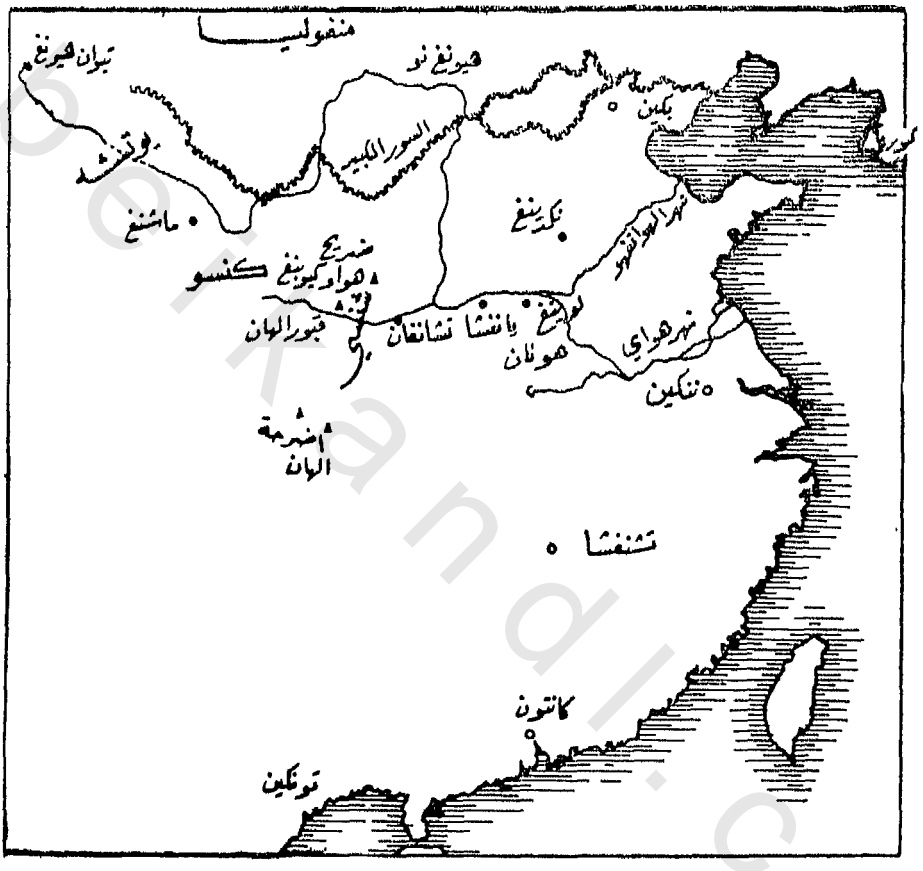

الشكل ٣٤ — الصين حتى سقوط سلالة الهان

وشكيمتهم التي جعلت منهم اشهر زعماء الصين القديمة واستسلموا لسلطان الامراء الإقطاعيين . واستمروا طويلاًعلى هـــذه الحالة كملوك خاملين . ومع هذا ولد (٥٥١ — ٥٥٠) في مملكتهم وايام حكمهم الفيلسوف العظيم كونفوشيوس (الذي غدا لتعاليمه الصدى البعيد الذي نعرف) ، وسنة ٤٤٠ انقسمت سلالة التشاو الى دوحتين تتحكمان في وقت اخذت فيـــه سائر الامارات تتقوى ، خاصة امارات تس إين وتشو وتسين الـــتي كانت تخضع للتشاو او تتقرب منهم . وتعددت الحروب الداخلية او المعارك التي خاضتها امارة ضد الاخرى وهكذا جزئت التسين

وقامت على انقاضها ثلاث امارت اخرى،التشاو والهان و«وي».واستمرت هذه الحالة السياسية القلقة والمتقلبة وفقاً لاهواء واقدار القتـــال حتى سنة ٣٣٥ ق . م . عندما حقق الامراء الاقطاعيون الأشد شكيمة تجزئة المملكة واتخذ كل منهم لقب « الملك » : وهـذا هو بـدء عهد قيام «الممالك المحاربة» (التي وجدت بصورة عملية منذ سنة ٤٨١). وهذا العهد هو فترةحروب متواصلة ، وغالباً غير مشرفة جندت لهـــا الجماهير الشعبية كما جندت فرق المرتزقة ، ولكن بدأت مملكة تس ين منذ سنة ٣١٠ توحيد البلاد لمصلحتها . وقد انهت عملهـــا هذا سنة ٢٢١ : « وقـــد اسست الامبراطورية الصينية في نفس الوقت الذي حققت فيه الوحدة الصينية » . (رنيه غروسه) .

الفصل الرابع

الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو

١ – عهد الشنغ

مع انه يستحيل علينا تحديد المراحل الزمنية لهذا العهد فقد حصلنا على بعض التفاصيل التي تصفه لنا بصورة قد تكون مجدية . وتتألف الصين في هذا الطور من بقعة متحضرة وسط شعوب من البرابرة . ومن المحتمل بأن شعب هذه الجزيرة قسم قسمين كما سيحصل في الزمن اللاحق . وعلى رأس المراتب يوجد الملك (ونغ) الذي ينظم في الوقت ذاته الامور الدينية والمسائل المدنية والادارية . ولكن من المحتمل بأنه كان لموجباته الدينية ، كما حصل في ازمنة ما قبل التاريخ – الافضلية على مهامه المدنية . وعاش الملك ، وهو شخص مقدس ، في قصر منفرد ، يقوم باتمام الطقوس الموسمية والرسمية ، اذ يستند اليه نظام العالم الطبيعي . واقيم القبر الملكي ايام الشنغ ، كما كان ايضاً عهد التشاو ، في احدى ضواحي العاصمة الجنوبية – الغربية . ومع هذا يظهر بأن الملك سكن في العاصمة . وكانت سلطته مبدئياً مطلقة . ولكن بقي الملك مع هذا اساس نظام سياسي محدد ينقل الوزراء وكبار القواد والموظفين اوامره ، وذلك نسبة الى عزلته المقدسة التي فرضت قديماً وسطاء بينه وبين شعبه . ويقدم الملك كل الذبائح الكبرى الى الآلهة او الجدود الاموات . وهو الذي يستشيرهم بواسطة السحر عن الحصاد وتربية المواشي وهبوب الارياح وهطول الامطار الخ ، وقد يقوم ، عندما يستلم زمام السلطة ، برقصة تذكر بانتصارات جدوده الميثولوجية .

ويعيش الملك في قصر قائم في العاصمة . ويحيط به وزيره الاول (كنغ – شه) وكبار قواده الذين ينقلون اوامره وقراراته ، ويسهرون على تنفيذ اصول اللياقات اثناء الاحتفالات الكبرى ، ويعدون ويحفظون المستندات الملكية ، ويقومون ببعض الطقوس ، ويسهرون على الكنز الملكي ويحفظونه . وهناك موظفون آخرون يساعدون كبار رجال الادارة هؤلاء . فهم

الذين يسهرون على تهيئة الطعام للقصر ، ونظافته وامنه . ويوجد خدم (سُو) مخصصون لخدمة نساء القصر .

ويهتم الملك بالدرجة الاولى بالانتاج الزراعي ، فيعين مفتشوه البذار ويراقبون الحصاد . ولا تختلف حياة الفلاح اختلافاً كبيراً عن الحالة التي ستصبح عليها ايام حكم السلالات اللاحقة ، أو تلك التي ستبقى عليها حتى عصرنا الحاضر . ولكن مع هذا يجب الاقرار بأنهـــا كانت اكثر بداءة . واشهر مزروعات الحبوب استناداً الى طبيعة الارض هي الجاورس والحنطة والارز . وتحمي الاراضي المزروعة كوم من التراب . ويسكن الفلاحون في مغاور يحفرونها في الصخور وقد تلامس اللس (الارض الرسوبية) في المناطق الشرقية . ولم تكن البيوت — ان كانوا قـد عرفوها في ذلك العهد — الا من السياج ، ولا تستطيع مقاومة تقلبات الطقس . واعتنوا بتربية الثيران الداجنة والاحصنة . الخنازير والخراف ، التي كانت تقدم ذبائح .

ويظهر بأن الحرب والقنص كانا من امتيـــازات النبلاء . واستفتى الملك فلوس السلاحف المقدسة ليعرف اذا كانت الارياح ستعترض اعماله هذه او اذا كان عليه ان يتخذ قراراً تفرضه الحوادث . ويتألف الجيش من الخيالة وعجلات الحرب والمشاة ، وكان هؤلاء من الفلاحين بينما انتمى اولئك الى النبلاء . ويذكرون جيشاً يعد ثلاثة آلاف رجل ، وفرقة من الخيـالة تنقسم الى ثلاثة اقسام يضم كل منها مئة خيال . والاسلحـــة على شيء كثير من الاختلاف والتطور ، ويصنعونها خاصة من النحاس اذ ان الحجر واليشب اصبحـا يستعملان فقط للأسلحة الطقسية . ولن يظهر الحديد الا في أواخر عهد التشاو . ومن الأسلحة التي يعددونها السيف والقوس (التي تصلح لاطلاق النبال او الكرات) ، والسهم والفأس والحربة .. وكانت الورقـة من جلد . وتعاطوا القنص في الادغال التي تحيط بالاراضي المزروعة ، ويقومون به بجيش من المساعدين يقتلون او يقبضون على النمر والفهد والهر البري والسبنتي والدب والثور الوحشي والفيـــل والكركدن والذئب والخنزير البري والضبع . وكانت هناك طرائد اقـــل شراسة تسرح زرافات زرافات كالايل والوعل والسعدان والارنب والعصفور ...

وان احتلت الزراعة المركز الاول في الحياة الصينية كما تثبت ذلـــك السؤالات والاجوبة المنقوشة على الفلوس او العظام السحرية ، فان الآثار القديمة التي وصلتنا تثبت ايضاً قيام بعض الفنون التقنية ومن ثم بعض المهن التي لا نعرف عنها مع هذا اي ايضاح . فهم يشتغلون العظم والعاج ، ويستثمرون وينحتون اليشب ، ويحفرون على فلوس السلاحف وقرون الكركدن والعظم والعاج واليشب والنحاس والحيزران . وقد توصلوا الى إذابة النحاس واعطائه الاشكال التي يريدون ، وعجن الخزف وشيّه واعطائه مختلف الهيئات .

ومن الصعب جداً ايضاً الوقوف على المعتقدات التي سادت في ذلك العصر ، مع الجهود التي بذلت في هذا المجال منذ اقدم الازمنة . ولكن باستطاعتنا التأكيد بأن المعلومات التي وصلتنا والتي تتعلق بالفلاحة والحراث والطقوس والموسيقى والتقويم واعمال المساحة هي قريبة جداً

من الحقيقة ، ولكنها ستتبلور اكثر ايام التشاو . لذا سنأتي فيما بعد على دراستها .

٢ ــ الحضارة الصينية أيام التشاو

ان توسع المجتمع أيام التشاو والتطور السياسي والاداري الذي حصـــل بصورة سريعة في بعض الامارات (كامارة تس ين مثلاً) منذ أواخر القرن الخـامس يجعلان كل وصف يعطى بصورة قاطعة أمراً تحكمياً . وعلينا ان نفهم بأن كل ما سنأتي على ذكره يختص بصورة اوليـة بالمناطق التي خضعت مبـــاشرة للادارة الملكية ؛ وسنقدر من ثم دون صعوبة مدى ما نحن مدينون به لكتاب هنري مسبرو « الصين القديمة » .

المستندات

أصبح القنص والصيد وسيلتين للهو والتسلية اكثر مما هما وسائل لكسب العيش ، ولكنهما يعودان مع هذا بالربح الوفير . ويستعملون للقنص الحصان . امـــا الاسلحة فهي القوس والنبال ذوات الرأس المعدني والشباك والمصائد . والطريدة متنوعة جداً : الرّهْو والتدرج والحضاري والأوز البري والساوى والارنب وعناق الارض واليربوع والضبع والسنور البري والوعلة والايل والخنزير البري والكركدن والثور والنمر الخ . والقنص هو لهو النبلاء والسادة . وقنص الحيوانات المفترسة هو لهوهم المفضل ، وهو من الالعاب الرياضية الشرسة يقومون به جماعات جماعات وينهونه باقامة اعيـاد يفرضون فيها أكلاً وشرباً . ويعتبره الفلاح عمل سخرة يقوم به لإعالة سيده .

آما الصيد فهو أقل ذكراً من القنص ويستعملون له القراطل والشبـاك الصغيرة والكبيرة . وهم يعددون نحو عشرة اصناف مختلفة من الاسماك التي تستعمل للغذاء .

ولكن تطفو الزراعة على كل نشاط آخر . فان الانتصـار على الارض ، وقد اشتد الصراع ضدها بكل شجاعة منذ عهد لا يدرك بدأه عقل ، لا يتيح حتى ذاك التـــاريخ تخصيص هذه المنطقة لنوع من المزروعات ، كما سيحدث فيما بعد : فالمنطقة الواحدة تنتج كل ما يحتاجون اليه . ومع تطور الجماعات الريفية كثر عدد الاصناف المزروعة ، واتسعت اعمال قطع الغـــابات ، وتزايدت افعال تهيئة الارض للزرع بواسطة الماء والنار . وهم يستعملون المحراث والمنجل والفأس ، وكلها من معدن ، وخاصة المجرفة . ويسيرون في زراعتهم على المبدأ المتبع في زراعة الحضـار إذ ان الحقول هي قليلة المساحة ويستثمرونها كما يستثمرون البساتين . وتنضد المزروعات حول الارض المرتفعة التي يسكنونها ، تجاور البيت المزروعات الاكثر قيمة : بستان الخضـــار ثم الاشجار المثمرة ، وعلى بعض المسافة حقول النبـاتات الفسيحة واهمها القنب ، ثم الخضار الجافة والحبوب ، واخيراً في أقصى جهات الارض المروية حقول الارز .

وأضافوا الى مزروعات العهدالسابق (الجاورس والحنطة والشعير والارز) الذرة والكوسى والخيار واللوبياء والحمص (وهم يعرفون الاحتفـاظ بهذه الاصناف يابسة) والبطيخ والثمار التي تؤكل ، يضيفون اليها العنب البري والبصل والثوم وبعض انواع الاعشاب التي يستعملونهـــا

كتوابل . وتنمو في البساتين شجرة التوت وانواع عدة من الاشجار المثمرة (كأشجار الكمثرى والكرز والدراقن والمشمش والسفرجل والخوخ والكستنا والعنـاب ، وقد أدخلوا هذه الثمار الثلاث الاخيرة في بعض ألوان الطعام) . واعتنوا بصورة خاصة بشجرة التوت وغرسة القنب وهما منابع مرابح . وتستثمر شجرة التوت لتربيـة دود القز التي تغذي خيوطها المستخرجة أيام الخريف اعمال النسج طوال أسابيع الشتاء . وهم ينسجون القنب في الربيع . ويستثمرون ايضاً بعض أصناف اشجار الغـابات (كأشجار البندق والحور والسنديان والدردار ...) . ويعتنون بتربية المواشي ، ولكن يظهر بأنهم لم يوحدوا قطعـاناً كثيرة العدد . وقد تنحصر حيوانات هذه الاقطاع ببعض الأحصنة والتيران والخراف . ولا يعتمدون على هـذه الحيوانات لحر العربات إذ يقوم الانسان بمعظم الاشغال مستعيناً بالسلال والقفف ، مع انهم عرفوا العربات. ويربون حيوانات داجنة للتغذية . كالخنزير والارنب والدجاج والعصافير. ولا بد من اضافة الهر والكلب والوعل الى هذه الاصناف ، وحتى الفيل ايضاً في مناطق الجنوب .

ويختلف المنتوج الزراعي باختلاف المناطق ، وتبعاً لخصب الارض وأهمية اليد العاملة وحسن مناخ الفصول . وتنتج بعض المقاطعات الارز بكميات هائلة ، كمنطقة تش رو ، وتستثمر غيرها للحبوب ، كمنطقة تسين التي تستطيع ان تمون ، كما يقال ، المناطق الاخرى في السنين العجاف . وهم يعتنون اعتناء خاصاً بأعمال الري التي تكون عنصراً اساسياً لهذا الازدهار .

وتعود ملكية الاراضي الى السيد . ويستغل الفلاحون هذه الاراضي لصـالح المتبوع . واستناداً الى التقاليد الصينية ، التي تعكس كما يبدو الهدف الاعلى ، يوزعون الحقول على الفلاحين ، فتنال كل اسرة حقلاً . ولكل من هذه الحقول مساحة مربعة محددة ، تؤلف تسعة منهـا مجموعة واحدة . وتستثمر ثمانية من كل مجموعة لإعاشة ثماني عائلات ، اما منتوج الحقل التـاسع (ويعتبر من الممتلكات العامة) الواقع في وسط الحقول الاخرى والذي تعتني به معاً العائلات ، فيخصص للملك او للسيد ويعتبر محصوله كضريبة .

وفي الصيف يسكن الفلاحون على الاراضي المزروعة في اكواخ موقتة . وعند اقتراب الحصاد يشددون الحراسة ضد السارقين والخنازير البرية والطيور . إذ للمحصول دور رئيسي في هذا العالم الاقطاعي ، فإن أتى جيداً يعتبرونه علامة نصر أكيد ، وإن كان رديئاً جلب الفـاقة والجوع وزعزع نظام المملكة . ويكون هذا المحصول الهدف الذي يرنو اليه كل جيش مظفر .

والصناع والتجار قليلو العدد ، ومع هذا فهم اساس الحياة الصناعية التي عرفت حتى في هذا الطور بعض الازدهار ، ولكنهـا ستغدو ، في وقت لاحق ، منافسة خطرة للزراعة . ويحتل النسج ، الذي تقوم به النساء ، المركز الاول : فيصنعن اقمشة حريرية وقد يطرزنها ، وقطعاً من القنب ، وثياباً من خيطان النباتات التي تعترش . وعرف القوم كيف يضفرون الاشواك والاقصاب والقراص والتبن ، ويستعملون الحيزران ويستثمرون الجلود . ويصنعون من الخشب والمعدن

والخزف والحجر واليشب ادوات الفلاحة والعجلات والاسلحة (كالحراب والدبابيس والأقواس والسهام والتروس وسلالم المعارك الخ .) وأدوات الموسيقى التي يكثر عددها حتى في ذاك العهد (كالطبول المختلفة الانواع والمزامير والأعواد والطنابير والأجراس والصنوج الخ .) وأدوات متنوعة جداً للاستعمال (كدبابيس الشعر والمخارز والمقاص والملاعق والفؤوس والمراجل والطناجر الخ). وهم قد استعملوا النحاس إذ لم يظهر الحديد إلا في أواخر عهد التشاو .

وغدا استثمار الأملاح والمعادن اساس ثروة بعض المناطق ، خصوصاً مقاطعتي تس ين وتسين . وازدهرت ايضاً تجارة هذه المعادن .

ومع هذا لم تتسع التجارة إلا في وقت لاحق. وكان أساسها مبدأ الشراء والبيع او المقايضة. وقد أتوا على ذكر الارباح التي بلغت مراراً حداً عالياً إذ يؤكدون وجود تجار أثرياء ، صاحبوا الامراء الاقطاعيين ، وعاشوا حياة بذخ ورفاهية ، يرتدون الثياب الحريرية المزركشة ويتنقلون في عربات يزينها الذهب واليشب . وجرى التعامل التجاري بواسطة نقد كان ، ايام التشانغ، عبارة عن نوع من الأصداف ، ثم اصبح قطعاً عظمية ، الى ان غدا من النحاس وكانت وحدة هذا النقد اولاً «وان» (نحو ثلاث اواق ؟) ثم — أيام التشاو الشرقيين — الكين (نصف اوقية ؟) وقد جعلوه سبائك تزن كل منها عشر اوقيات او اثنتي عشرة اوقية (؟) . ولم يسكوا النقود الاولى بأشكال مختلفة (كالسيف والجرس الخ .) إلا في أواخر القرن الخامس .

ومع نمو واطراد التجارة غدت مشكلة ايجاد طرق المواصلات وصيانتها هم الادارة الاكبر . ولا تسير فقط على الطرق قوافل التجار بل ايضاً العربات التي جهزت خصوصاً لتنقل الجمهور . ولم يستعملوا الانهر للتنقل قبل قيام الدول المحاربة . وكانوا يعبرون مجاري المياه سباحة او عند المجازات . وبواسطة وسائل النقل هذه تبادلت مختلف المقاطعات المواد الغذائية والاولية كالسمك والملح والنحاس والذهب والجلد والخيزران والخشب والزنجفر والحبوب .

ومع الزمن وتحسين سبل المواصلات وازدهار الصناعة اصبحت التجارة تنافس بصورة جدية الزراعة . ومنذ القرن الخامس ق. م. يلاحظ المرء سعي حكام المقاطعات لحفظ التوازن بين الزراعة والتجارة وميلهم المتزايد لمساندة سكان الأرياف وحمايتهم وتأمين الأرباح التي تعود اليهم .

وتشمل الحياة الاقتصادية التي أتينا على وصفها الضرائب والأرباح والخسائر التي تسببها الحروب . وهو يختلف باختلاف المناطق ويزداد كلما ابتعد المرء عن العاصمة . وتسدد هذه الضريبة اكثر الاحيان باعطاء مواد طبيعية ، بينما تسدد الضرائب والمكوس في الاسواق بدفع قطع نقدية نحاسية . وقد تبلغ اكثر الضرائب فداحة ربع المنتوج ، ولكن لا يصل منها الى الخزينة الملكية إلا جزء ضئيل بسبب بطء المواصلات وكثرة عدد الوسطاء الاداريين بين العاصمة والمقاطعات . ويفرض ذوو السلطة الاقطاعيون ضرائب مباشرة ، كما تجبى مكوس من أثمان

السلع المتبادلة كالسمك والملح . وتجني الدولة علاوات اضافية من الغابات والاملاح والمعادن التي تحتكرها . ومع هذا يبقى ريع الخزينة أقل من الريع الذي كان من الممكن ان يحققه نظام يقوم على المراقبة الدقيقة والجدية . وان هم أمنوا ما تطلبه الحياة العادية فان المصاريف الاستثنائية تجد خزينة فارغة .

المجتمع

يظهر أن المجتمع ، ايام حكم التشاو الغربيين ، لم يقسم فئات محكمة الوضع كما سيجري ذلك بصورة مطردة عندما سيسعون الى تحقيق الوحدة السياسية وتثبيت السلطة المطلقة . فهناك طبقتان كبيرتان تضم أفراد المجتمع : طبقة الفلاحين السفلى ، وطبقة النبلاء العليا (شي *Che*) وهم الأشراف بالوراثة . ولكن سرعان ما تشعبت الطبقتان فرقاً فرقاً ، تبز الواحدة زميلاتها حقوقاً . ففي المقام الدّون ، نجد العبيد والفلاحين ثم نرتفع تدريجاً الى العمال الصناعيين والتجار فالأدباء فالموظفين فالوزراء فالموظفين الكبار فالنبلاء فالأمراء حتى الامبراطور الذي يسيطر على هرم الرتب .

ان أساس المجتمع هو دون شك عامة الشعب . وللعامة هذه نظام يختلف في كل شيء عن نظام النبلاء . فالفلاحون ، وهم يشتغلون سوية ويعيشون معاً ، لا يتمتعون بشخصية ما ولا يأتون بمبادرة ما . انهم تباع الارض التي يستثمرون ، وينتقلون معها من يد الى أخرى دون أن يصبحوا لها مالكين بالمعنى الحصري . انهم لا يتبعون طقساً بل يخضعون فقط للتقاليد .

ومن المفروض ان يجني الفلاح من عمله كل ما يحتاج إليه ليقوم بأود أسرته ويبيع ما يفيض في اسواق المدينة . وهذه هي علاقته الوحيدة مع العالم الخارجي والادارة . ومع هذا فلا تختص هذه العلاقة بالفرد بل بالطبقة التي ينتمي إليها والتي لها وحدها شخصية معنوية أمام رجال الحكم والادارة . ان حياته رهن بالفصول . ففي الشتاء ينزوي الفلاح بحكم الضرورة ويعود الى قصبته مع أفراد اسرته ليعيش ضمن اطار بيته وبستانه الصغير ويقوم بالأعمال التي يتطلبها المسكن . وعند حلول الصيف يترك الفلاح قريته ويقيم مع امرأته وأولاده على الأرض التي يزرعها ، وقد حمل أدواته الضرورية وأشعل ناراً جديدة في بقعة حددت خصوصاً لهذه الغاية في الحقول . ومع الحياة هذه في الهواء الطلق تنكمش على نفسها نظم حياة الاسرة إذ يخضع كل شيء عندئذ للحياة الجماعية .

ولا يعرف أفراد العوام هؤلاء الزواج (هوان *Houen*) ، إذ لا طقوس خصوصية لهم ، بل موافقة الرجل على العيش مع الامرأة معاً (بن *Pen*) . ويجري هذا الأمر عادة في الربيع ، وذلك استناداً الى رأي الوسيط ، في وقت يقيمون فيه اعياداً كبيرة تسعف اقامة الفلاحين على الارض التي سيستثمرونها . وهذا الاتحاد هو حر طليق من كل شرط ، يثبتونه ان تحقق الأمل بانجاب البنين ، أثناء حفلة عمومية .

وتختلف الطبقة الاجتماعية الاخرى ، فئة النبلاء ، عن العوام اختلافاً أساسياً بمسألتين

رئيسيتين : فلكل من افراد هـــذه الطبقة جدود ، وهو ينتسب الى اسرة . وتنتج عن هذه الحقيقة سلسلة اختلافات جوهرية : فالجد،وقد كان رجلاً نبيلاً ، او بطلا او امبراطوراً ، امتلك دون شك ارضاً او قام بوظيفة رسمية . واستناداً الى هذا الواقـع فهو قد أدّى طقوس العبادة واعطي اسم جماعة . لذا غدا من الطبيعي ان يصبح أحفاده اعضاء في قبيلة ما ، فيقيمون طقساً، ويعطون ارضاً او تسند إليهم وظيفة . وبينما يضيع الفلاح وسط جماعة لا اسم لها ولا خصائص، يصبح للفرد النبيل شخصية محددة ضمن عشيرته .

ولهذه الجماعات ايام التشاو ، مهما كان اصلها ونسبها ، خصائص جماعـــة دينية تحرم على افرادها كل علاقة زواجية فيما بينهم . ويبدو بأن عدد هذه الجماعـات كان محدوداً ولم يتجاوز المئة. وكرّمت كل جماعة جَداً كان بعرفها إلهاً او بطلاً (إله الجاورس، إله قمة الشرق الخ..). وكان لبعض من هذه الجماعات جدّ واحد . ونجد في هذه العبادات التي قدموها للجدود ، وقد يكونون بعض المرار حيوانات او نباتات كالجاورس ، آثاراً قديمة جداً ، ولكن يصعب الوقوف عليها في هذا العهد .

وان كان التقسيم العشائري يقيم من النبلاء جماعة دينيـة فان التقسيم الذي يسيطر على تنظيم الاسرة والفرع والبيت هو تقسيم اداري ومدني بحت ويعتبر فرعـاً من الاول . ان رأس البيت او الاسرة هو السيد المطاع: فهو الذي يقرر الزواج أو يبطله والذي يقبـل او يرفض الأولاد ؛ وهو يمثل بشخصه كل أفراد المجموعـــة ، ويقاضيهم ويعاقبهم مباشرة دون ان يتدخل قضاء الدولة . ولا يخضع لسلطانه فقـط افراد الاسرة المقيمون معه بـــل ايضاً الذين استقروا بعيداً .

وامتياز النبلاء الأساسي هو تملك الارض ، إن أُعطيت لهم على سبيل الاقطـــاع او الملك الصرف . والنبلاء فئات عدة تتفاوت أوضاعها ان كانوا نبلاء ريفيين او قواداً كباراً او موظفين اداريين . وهناك مبدئياً خمس درجات بين الاشراف توازي تقريباً فئات من يدعوهم اليوم دوق ومركيز وكونت وفيكونت وبارون وتختلف مساحة ممتلكاتهم باختلاف ألقـــابهم . ومع هذا تختلف ثروتهم المادية باختلاف الظروف . فقد نجد نبيلاً وافر الغنى يملك أراضي تدر عليه أرباحاً طائلة ، كما يلاقي شريفاً ذا ثروة بسيطة او حتى فقيراً جداً يجد نفسه مضطراً لخدمة سيده الذي يدافع عنه ويقدم له الغذاء وذلك بدل طاعتـه وخضوعه له : فهو يسير معه الى الحرب ويسلك في كل شيء كأنه تابعه ، ويقوم بوظائف مختلفة في بيت متبوعه كأن يصبح امير أخوره او سائق عربته او احد جنوده او حارس ثروته او احد طهاته الخ . وقد يختار بعض النبلاء القليلي المال أعمـالاً اكثر حرية (كمعلم في مدرسة قروية او كاهن او ساحر او منجم او طبيب الخ ...) كما يتعاطى بعضهم التجارة او يصبحون وكلاء عند كبـــار اصحاب الأملاك ولكنهم يبقون ، مهما اصبح مركزهم ، أهلاً لتبوء اعلى الوظائف ولا يختلطون قط مع طبقة العوام إذ للنبلاء فضيـــلة

(طاو ـ طو) تعد اساس قوة وثروة الرئيس وهي التي تحيي بصورة معاكسة ـ ونستطيع ان نقول بالعدوى ـ البلاد بأجمعها من طبيعة الى حيوان الى انسان ، وتحفظ لكل شيء الازدهار وتبعده عن الوهن وحتى الموت . وهكذا يستند كل امر الى السيد وروحه هذه ذات المفعول السحري وهو يعد اساس هذا المجتمع الاقطاعي . انه يختصر في ذاته كل القوى الفاعلة ويحددها بواسطة الطقس .

ان امتلاك الاقطاعة التي يقرر الملك تقليدها ، يجعل من النبيل أميراً او تابعاً لسيده الملك او لأمير آخر اكثر قوة. وتجري هذه التولية أثناء احتفال مهيب وتعطي النبيل حقوقاً وموجبات جديدة فيما يتعلق باقطاعته وأتباعه وسيده .

ان الملك هو في الوقت نفسه أمير الأمراء ، والنبيل الاول ، وابن السماء الذي وكل اليه سيد الاعالي مهمة حكم الشعب النبيلة والابقاء على نظام العالم الطبيعي إذ تعادل فضيلته المهمة المسنودة اليه . وهكذا يتم التوازن ما بين سلطاته الكهنوتية والسياسية . فهو يحدد الوقت في كل شهر ، ويقر القوانين ، ويسمح بمقابلته ، ويلفظ الاحكام الخ . والسلطة الملكية ارثية يرثها الابن عن الأب . ويعتبر ابن الامرأة الشرعية البكر الوارث القانوني . وعلى النساء ان ينظرن ويقررن هذا الامر قبل حدوثه إذ لا بد من إقامة طقس خصوصي حتى ينقل اخو الملك المتوفى او ابن شقيقته ولو بصورة رمزية السلطات الى الوريث صاحب الحق .

الهيئة الادارية

مع اتساع مدى الزراعة والتجارة والمدن غدا من الضروري ان تصبح الادارة ايام التشاو اكثر تنظيماً . وشبهوا الادارة هذه بهرم يسيطر على قمته الملك ووزيره الاول الذي لا يقل عنه بالواقع سلطة ونفوذاً خصوصاً اذا كان الملك ضعيف الارادة . ثم يلي الملك ورئيس وزرائه الوزراء الثلاثة الأكثر أهمية وهم وزراء الزراعة والحرب والاشغال العامة . ولوزير الزراعة دون شك الأهمية الكبرى في بلد زراعي وحضري في الدرجة الأولى . وهو يدير جهازاً محلياً يقرر بكل دقة أعمال الحقول ، وكيفية تصريف المحاصيل ، وبصورة أعم حياة الفلاحين أنفسهم ، وزواجهم وأعيادهم واجتماعاتهم . ويعتني وزير الحربية بكل الشؤون العسكرية كتجنيد الجيوش ومواسم الصيد والاستعراضات والتدريب الحربي : وهو يراقب مستودعات الذخائر والعربات والخيول وزرائب الأحصنة الأصيلة . وهو الذي يمثل معنوياً الامبراطورية اذ يحمل بكل عظمة وقت إحراز النصر ويرتدي ثياب الحزن ان اندحرت جيوش الدولة . ولا يهتم وزير الأشغال العامة إلا في الحقول وما يعود اليها . فهو الذي يقيس الحقول ويوزعها ويقيم الطرقات ويسهر على صيانتها ، ويبني القنوات والسدود الخ . وعلاوة على هذا فهو يهتم أيضاً بشؤون العمال الصناعيين .

ويلي هؤلاء الوزراء ثلاثة وزراء آخرين يعتنون بأمور الملك الخصوصية وبالقضاء الجزائي . ويهتم الاول بصيانة القصر الملكي وتموينه وتأمين سير الخدمة فيه سيراً حسناً ، وبالأموال الملكية

ويعتني الثاني بصورة خاصة بشؤون العبـادة ويراقب الكهنة والمنجمين والسحرة والأطباء الخ . ويعود الى مدير الشؤون القضائية الجزائية تطبيق القـانون وإنزال العقوبات . وتتراوح العقوبات ما بـين أحكام الموت ووشم الوجه مروراً بقطع الاعضاء التناسلية والأرجل وجدع الأنف . وهو لا يتعاطى القضاء بصورة شخصية إلا متى عوقبت الجريمة بالموت . ومع هـذا يمكن استبدال كل عقوبة بدفع بدل حسب معدل مقرر يبلغ ألف سبيكة نحاس لإنقاذ حياة الرجل . ويحيط بهؤلاء الوزراء (وقد أطلقوا عليهم منذ القرن الرابع ق . م . اسم « الوزراء الستة ») عدد كبير من الموظفين . وهكذا غدا هيكل رجال ادارة البلاد معقداً جداً .

ولا تقتصر بطانة الملك على من ذكر ، اذ نجد ايضاً مجلساً يحمل اعضاؤه ألقاباً شرفية دون ان تحدد مع هـذا وظائفهم . وعلاوة على ذلك فهناك وظائف في القصر الملكي وهي غالباً ما تكون إرثية يسعون اليها بكل نشاط اذ تقرب أربابها من الملك : رئيس الخوان ، وأمناء سر المال ، وكبير الكتبة الخ . ولا يخلو نظام الادارة هذا من بعض الشوائب . وخطؤه الأكبر انه يعهد بوظـائف مختلفة الى الاشخاص انفسهم . لذا – عندما يضعف الملك – تتفكك عرى هذا النظام وتعمق الهوة التي تفصل بين الواقع والمبادىء .

وتقسم ممتلكات الملك الى مقاطعات (هيانغ) يحكم كلاً منهـا قائد كبير (تي – فو) . وتتجزأ هذه المقاطعات بدورها الى محافظات فنواح فمديريات فمدن فقرى يتولى شؤون كل منها موظفون تقل رتبهم بصورة تدريجية . وينتخب هؤلاء الموظفون من الاشراف والنبلاء المحليين ، وهم يهيمنون تماماً على حياة الريف والمدينة فيقدمون الذبائح المقررة وينظمون اعمـال المساحة واحتفالات الحياة الشخصية ، ويشرفون على عائدات المحاصيل الزراعية ويستوفون الضرائب . وهم يقدمون سنوياً تقارير لرؤسائهم عن اعمالهم ، ويوجد مفتشون يراقبونهم ويضعون التقـارير عن كيفية ادارتهم ، ويساعدهم جيش من الموظفين ذوي الاختصاص يكون الشعب على اتصال مباشر معهم كالمشرفين على المستودعات والجباة والموزعين الخ . ولا تقتصر مهمة رجال الادارة هؤلاء على تصريف شؤون البلاد المدنية بل تتعداها الى الاعمال القضائية يساعدهم فيها قضـاة محليون . وتخضع القضية التي تتجاوز صلاحياتهم الى سلطات قضائية اعلى . وتضـاف اخيراً الى وظائفهم المدنية والقضائية هذه مهام حربية اذ يصبح رجال الادارة هؤلاء في زمن الحرب تحت تصرف وزير الحربية . والتنظيم الحربي هو صورة طبق الأصل للنظام المدني وقد كان ذاك مثـالاً لهذا في القرون الغابرة .

ويتألف الجيش من رجال تجبر الأسر على تقديمهم (وعلى كل اسرة ان تقدم محـارباً) . ويبلغ عدد الجيش (١٢ ٥٠٠) جندي يقسمون خمسة فيـالق ، ويجزأ الفيلق الى خمس كتائب والكتيبة الى خمس فرق ، توافق كل منها منطقة . وللممتلكات الملكيـة ستة جيوش ، ولا يحق للاتباع إلا حشد ثلاثة جيوش او جيشين او جيش واحد . ويشمل كل جيش ، علاوة عن فرق

الخيالة ، عربات قتال تجرها الخيل . وسلاح المعركة هو الحربة والقوس ، وتعطى الأوامر بواسطة الطبول والاعلام . ويجهلون خطط القتـال ، التي لن تعرف التطور والرقي إلا مع ظهور الممالك المحاربة، عندما يحل الخيالة مكان العربات. ومع هذا فللجيش منزلة رفيعة في حياة الرجل النبيل؛ ففي هذا العهد الاقطاعي حيث تلعب المعارك والفتوحات دوراً عظيماً غدت الحرب عمل بطولة شريفة تخضع لقوانين المدينة التي تنعكس أنظمتها على كيفية ترتيب المعسكر والتي توافق سلسلة درجاتها الادارية مع سلسلة المراتب العسكرية .

ولكل امارة واقطاعة نظام اداري يشبه نظام ادارة الأملاك الملكية . وسعى ملوك التشاو لجمع هذه المناطق وتوحيد حكمها : لذا قسموا البلاد الى تسع مقاطعات (تشاو) يعين على رأس كل منها حاكم (بو اومو) يمثل السلطة الملكية ويحافظ على الأمن ويصدر الأحكام القضـائية . ويكون عادة هذا الحاكم نبيلاً من المنطقة ، ويجبر بصفته من أتبـــاع الملك المباشرين ان يقدم للعاهل الخضوع في اوقات محددة ويؤدي له ضريبة عينية — تتكون عادة من المنتوجـات التي تتفرد بها المنطقة — ويقدم له العون في زمن الحرب .

وهذا النظام هو بعيد عن الكمال والدقة إذ يسعى غالباً هؤلاء الحكام ، وقد غدوا بمعزل عن المراقبة الملكية ، للتحرر من السلطة المركزية لا بل للتحالف ضدها احياناً. ولن تجدي مساعي التوحيد الاولى حتى ولو قام بها ملك متجبر وقوي الشكيمة إذ ان عزلة كل مقاطعة واستقلال الحكام وصعوبة المواصلات تؤلف عوامل تساعد الانتفاضات الفردية وتحول دون قمعها. ويقوم الأمراء انفسهم بأعمال الأمن ويفرض بعض منهم قوانين أشد صرامة من قرارات الحكم المركزي ، ومن اشهر هؤلاء الكونت هياو من تسين في القرن الخامس الذي أقام ، بمساعدة وزيره يانغ ، حكماً مطلقاً تعد اصلاحاته امراً ثورياً بالنسبة الى السلطة المركزية . ففي كل ناحية من نواحي الصين الغربيـة المتمدنة ظهرت اصلاحات مماثلة تهدف الى تعديل النظام الاجتماعي وتحسين انتاج الارض وتوزيع المهام الادارية وتأمين موارد منتظمة ، وهذه هي تبـــاشير سقوط حكم التشاو وسيادة الممالك المقـــاتلة .

رجال الكهنوت

ينقسم رجال الكهنوت فئتين لكل منهما منزلة على طرفي نقيض مع الاخرى. ويتخذ افراد الفئـة الاولى من النبلاء ويتفرعون طبقات عدة فمنهم الكهنة الرسميون والمصلون والمنجمون والسحرة ومفسرو الاحـــلام والمظاهر الطبيعية والفلكيون ، وتشمل الثانية رجالاً ونساء ينتمون عادةً الى فئة اجتماعية وضيعة لذا أعدوا محتقرين يتعاطون السحر ويكونون كمن اعتراهم مس شيطاني .

وينتمي عادة رجال الكهنوت الرسميون الى أسر تحتفظ بكل ضراوة بامتيازاتها وخصائصها ويتدخل هؤلاء الكهنـة في كل المناسبات الكبرى ، ولكل منهم اختصاصه الدقيق ولا يستغنى قط عن خدماتهم . فهم الذين يديرون اعمـال الذبائح ، ويتلون الصلوات التي تكرس الاتفاقات

والمعاهدات، ويراقبون حفلات الدفن، ويتنبأون عن مصير الحرب والصيد والزرع ، ويفسرون الاحلام والعلامات والرقى (بواسطة اسفاط السلاحف كما جرى ايام الشانغ) ، ويسدون النصح للنبيل أو للملك عند اتخاذ القرارات العويصة .

ولرجال الكهنوت هؤلاء (وقد غدت بعض وظائفهم وراثية) عدد من المساعدين الثانوين يقومون بدور ما في اتمام اعمـــال العبادة : الموسيقيون والكتبة والخدام والموظفون ، ولكل اختصاصه ويرتبط بفئة معينة من فئات رجال الكهنوت .

ولا يؤلف رجال البيعة طبقة كهنوتية مع انه لا غنى عنهم نسبة لما يقومون به من وظائف، وان تمتعوا ببعض النفوذ في الدواوين فقد ألحق كهنة املاك الملك بوزارة الشؤون الدينيـــة واعتبروا كموظفين . ولا يبـــدو بأنهم خضعوا لقوانين حياة معينة إذ لا يميزهم شيء عن النبلاء . إنهم رجال مهنة يتوارثون فنهم ابا عن جد .

ويختلف عنهم كثيراً السحرة (هي) والساحرات (وو) الذين ينتسبون الى العوام او الى الطبقة النبيلة وتغدو مهنتهم كأنها دعوة ورسالة وليس إرثاً . والأطبـــاء ومستدعو الامطار ومخرجو الأرواح النجسة الخ، هم وسطاء ينشئون علاقات مع الآلهة والأرواح فيصبحون مطية لهم، لذا يتخذهم الآلهة والارواح أداة يعملون بواسطتها وينطقون بلسانها أثناء حفلات الاستلهام التي تشمل حركات تمثيلية ورقصاً وأناشيد لم يعدوا العدة لها ، يقومون بها على أنغام الطبل والمزمار التي تثير حماساً جنونياً . ومع ان رجال الكهنوت الرسميين قد استنكروا وجود السحرة (وقد يصل هذا الاستنكار الى درجة حرقهم أحياء !) فان هؤلاء السحرة يلعبون دوراً هاماً في حياة النبيل ويكونون من عداد بطانتـه . وتزداد اهميتهم في القرى حيث تعيش طبقة العوام الذين لا طقوس لهم ، لا بل نشاهد في بعض المناطق جماعات لتعاطي اعمال السحر .

أسرة الفلاحين

اختلفت الثقافة وطرق الحياة اختلافاً بيناً تبعاً لطبقـات المجتمع إذ ، كما سبق ورأينا ، يستحيل المقارنة بين العوام وطبقة النبلاء .

والفلاح هو ثمرة مجامعة (بن) وليس زواج قانوني (هوان) كما هي الحالة عند النبيل . ففي ربيع كل سنة ، بعد افتتاح موسم الزواج الذي يقوم به العاهل وقبل الخروج الى حقول الزراعة، يذهب الشباب والصبايا للغناء في الحقول اما جماعات واما ازواجاً . وتتم المجامعة في الهواء الطلق ولهم الحق في التلاقي كما يريدون طيلة موسم الاعمال الزراعية . ولكن عندما يحين موعد الرجوع الى القرية في بدء الشتاء وتعود كل اسرة الى الانزواء في بيتها وتنتهي إذ ذاك الحياة الجماعية يفترق الأزواج ولا يستطيعون التلاقي بعدئذ إلا بصورة خفية . وعند عودة فصل الربيع اللاحق يتلاقى الأزواج ثانية او ينتخب الواحد رفيقاً آخر . وعندما تبلغ الفتاة العشرين ربيعاً تتزوج – إلا اذا كانت قد حملت قبلاً – أما الفتى فلا يتزوج إلا في الثلاثين من عمره . ولا يتم اتحـاد الأزواج لما يلاقي الواحد في الآخر من جاذبية شخصية ، كما قد يتبـــادر الى الذهن بسبب ما سبق قوله ،

ولكن لضرورة التقارب بين الأسر . ويبدو بأنه كان محرماً ان يتحد الشخص مع شخص آخر من قريته . ويبدأ الوسيط المحادثات ويتابعها وتتم الحفلة برئاسته في الخريف ، وقد يتعاقد الأزواج اثناء عيد جماعي واحد . إذ ذاك تغادر الفتاة قرية اهلها لتلتحق بقرية زوجها وتنقطع عن الغناء في أعياد الربيع . ويصبح اتحاد الازواج من ثم غير قابل للانفصام .

وتحدد التقاليد بكل دقة علاقات الزوج بزوجه ، ويحرم التعاطي الجنسي مدة فترات عدة في غضون السنة . وتفرق الزوجين الواحد عن الآخر طبيعة الاعمال التي يقومان بها فتخلق من ثم مجتمعاً للذكور وآخر للاناث . فالرجال يقومون بأعمال الحراثة وتربية المواشي بينما تعتني النساء بالمنازل (حيث لا يدخل الرجل إلا نادراً) والغزل .

ولا نجد تحديداً واضحاً لدرجات القربى او كلمات تميز بوضوح الابناء والاخوة وابناء العمومة . فهناك علاقات قربى جماعية تربط بعض الافراد فيما بينهم وتجعل منهم فئة اكثر وحدة وأقل انفتاحاً . ويشارك اعضاء المجتمع العائلي الواحد أحزان بعضهم ويأكلون طعاماً أُعد على نار واحدة .

وتتأثر حياة القرى بتتابع الفصول . ففي الخريف والربيع يجتمع الرجال والنساء ويقضون وقتهم في اللهو والعبث : سباق للعثور على بيض العصافير التي تهاجر من بلد الى آخر ، ومصارعة ورقص وغناء وقطاف النباتات البرية وتراشق بالزهور وصراع يتنافس فيه الشباب والصبايا وهم يرقصون على إيقاع أغان مرتجلة الخ . ويختتمون هذه الملاهي بالأكل والشرب وقد يعقدون عقوداً ومبادلات كما لو كانوا في الأسواق .

وعندما تنتهي السنة الزراعية ويحين موعد الرجوع الى القرية يحتفل الرجال معاً بانتهاء الموسم ، ويتبادلون الهدايا . ويبتدىء إذ ذاك الفصل الموات باقامة حفلة الـ « نو الكبير » الذي ينذر بحياة الشتاء للانسان والحيوان . ولا يشترك في هذه الحفلة إلا الرجال فقط فيرقصون ، وقد تنكروا بأشكال حيوانية ، على نغم دف من الخزف ، وينغمسون في الأكل والشرب لينتهوا الى السكر والجنون بعد ان يكونوا قد انفقوا بسعة ؛ ويشرف الشيوخ على هذه المهازل العمومية . وتختتم اعياد باتشا اوقات العمل التي تسبق مباشرة فصل الشتاء ويقوم بهذا الاحتفال شيوخ القرية فيرتدون ثياب الحزن ويمسكون بأيديهم العصي ويدعون الرجال لبدء فترة العزلة التي ستعد بدورها بعث سنة جديدة .

وترتبط الولادات عند الفلاحين بطقوس الماء ؛ وتتم عادة حفلة اشراك الولد عند الاحتفال بأعياد الربيع . وترمز كل مرحلة من مراحل الحياة الى الفصول وتبدلات الطبيعة المقدسة .

حياة البلاء

تنحصر مهام حياة النبيل في ضرورة تأمين استمرار الطبقة وعبادة الجدود . لذا فان الزواج عمل ديني يخضع لضمانات محددة . وتعدد الزوجات هو القاعدة ولكن لا يستطيع النبيل ان يتزوج إلا مرة واحدة ، لذا يعقد قرانه في الحفلة نفسها على امرأته

الاساسية وعلى نسائة الثانويات. ويحرم على الزوج ان ينتخب نساءه من اسرته . ويختلف عددهن تبعاً لمقامه : فله الحق بامرأتين إن لم يكن صاحب مركز مرموق ، وبثلاث نساء إن كان قائداً ، وبتسع إن كان أميراً. وللملك الحق باتخاذ اثنتي عشر زوجة. ويضاف الى هؤلاء الخليلات عدد من الخليلات إن كان الزوج غنياً واستطاع ان يبتاعهن . ولا يكون الوسيط إلا احد الأقارب او صديقاً انتخب لهذه الغاية ، وهو يقوم بالخطوات الصرورية حتى اعلان الخطبة . ويوم الزواج يأتي الشاب ليأخذ الفتاة ويبدو كأنه يريد سوقها في عربة . وعندما يصلان الى البيت الزواجي يأكلان معاً طعاماً يتكون من ثلاثة صحون أُريقت عليها ثلاث كؤوس من الخمرة . وتتكون الكأس الاخيرة من ثمرة كوسى قسمت قسمين . ثم يأتي العروسان الى غرفتها الزواجية حيثما ينزعان ثيابهما وفقاً لتقاليد خصوصية. وفي الغد يقدم الرجل امرأته الى أقاربه الأحياء والأموات؛ وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على وصول الزوجة الى اسرتها الجديدة تصبح حقاً من افرادها إذ تشترك طقسياً بالذبيحة الاحتفالية التي يقدمها الزوج لأجداده . وبعد الاشتراك فقط بهذه الحفلة تصبح الى الأبد زوجته الشرعية .

ولا تستدعي ولادة الاطفال ، شرعيين كانوا او لا ، إلا القليل من الطقوس . ولكن لن يترك جميع هؤلاء الاطفال على قيد الحياة : فهم يقتلون او يهملون المولود الذي يرى النور في وقت يحسبونه شؤماً ، او في الشهر الذي ولد فيه ابوه ، او التوائم الثلاثة الخ . وعلى كل فالمولود، ذكراً كان أم انثى ، يترك وحيداً في غرفة دون أكل ولا عناية ، وذلك طيلة الأيام الثلاثة التي تلي رؤيته النور . وإن صمم رئيس الاسرة بعد انقضاء هذه الفترة على قبول الطفل ، ينقل هذا الاخير إذ ذاك الى مساكن النساء ويرضع الحليب لأول مرة . وعندئذ يعلن الوالد رسمياً مولد طفله وذلك بتقديم ذبيحة للجدود ؛ ثم بعد ثلاثة اشهر فقط يعرض عليه ابنه .

ويقيمون أثناء عهد الصبا بعض الطقوس : حفلة قص الشعر ، وقد يترك للصبي خصلة شعر على قمة رأسه بشكل قرن وللفتاة على شكل صليب، ثم حفلة انتخاب الاسم (منغ) التي تدخل المولود حقاً في سجل الاسرة التي تهبه من ثم الوجود وتقرر مصيره .

وتختلف الثقافة باختلاف الجنس . فالصبي يتلقى العلم في مدرسة المنطقة اما الولد الكبير فله الحق بالذهاب الى المدرسة الملكية في العاصمة ، ويمنح هذا الحق ايضاً للمتفوقين من تلامذة المناطق. وتستمر سنو الدراسة من العاشرة حتى العشرين وهي تشمل الفضائل الثلاث والطقوس والعلوم الست (الرقص والموسيقى وقيادة العربة والرمي بالقوس والكتابة والحساب) . ولا يتعاطى قط التلامذة مع العالم الخارجي بل يسجنون داخل مدرستهم او جامعتهم. وعند انتهاء الدروس يصار الى اعطاء القبعة الرجالية (كوان) التي ترمز الى انتقال الصبي الى عهد الرحولة؛ وعندما يرجع الى ذويه يدع شعر رأسه ينمو ويبتظر شهرين لاقامة هذه الحفلة الرسمية فيعطونه اثناءها اسماً جديداً (تسيو). وتبقى الفتاة مع الذكور حتى ربيعها العاشر ثم تعزل داخل بيت

الحريم حيث يلقنونها اساليب الطاعة والاعمال النسائية ويطلعونها على الدور الذي ستدعى للقيام به في الحفلات الدينية . وعندما تبلغ العشرين من عمرها ، او قبل ذلك ان خطبت ، تعزل لمدة ثلاثة اشهر في هيكل الجدود ثم تعطى دبوس الزينة للشعر (كي) واسماً جديداً .

ان واجبات وامتيازات النبيل هي مبدئياً واجبات وحقوق المحارب . وهناك شبه دستور شرف يسيطر على اعماله مهما كانت وظيفته : يحرم عليه قبل كل شيء مخاصمة معلم او مرب قديم . ومن اهم واجباته الثأر للأسرة ، ويزول امام هذا الواجب كل نفع شخصي وقد يؤخذ الثأر من الأموات .

والذي يقلد اقطاعة يشترك في حفلة رسمية تعد حدثاً هاماً في حياته ، فيستلم من يد ممثل الملك — وحسب طقس محدد — كومة من التراب وضعت على هيكل الارض الملكي ، ويجعل منها نواة هيكل إله الارض الذي سيقيمه في ملكه . ولا تختلف موجباته وحقوقه عن حقوق وموجبات سائر الاشراف ما عدا العبادة التي عليه ان يقدمها لأرواح اقطاعته وحسن ادارة الجماعات التي تخضع له .

ولا تنتهي اعمال النبيل الا عندما يبلغ السبعين من عمره ، لا بل غالباً ما يستمر في تأدية خدماته حتى موته وان كان قد اجبر على فقدان احد اعضائه التناسلية او بتر رجليه ليتولى بعض الوظائف . وطقوس الحداد على النبيل ودفنه محددة بكل دقة حتى تستطيع نفسه «العالية» ان تصبح من عداد الجدود وتنعم في مقرها السماوي بالامتيازات نفسها التي تمتعت بها على الارض . ويفرض على جميع افراد الاسرة ان يساعدوا الشريف لبلوغ هذا الهدف بعد ان يكونوا قد تأكدوا من موته . واثناء غسل جثة الميت يضعون في كل من نوافذها حجراً صغيراً من اليشب ، ثم يلبسونها ثوباً خاصاً (منغ بي) ويسجونها على سرير مزخرف بالقرب من بيرق كتب عليه اسم الميت . واثناء النسجية — التي تختلف مدتها تبعاً لمنزلة المتوفى — يهرع الاقارب والغرباء يقدمون تعزيتهم الى اولاد الفقيد الذين يرتدون ثياب حرن بيضاء اللون . وتوضع الجثة في تابوت حشوا داخله بالحرير الاسود ثم ينقلونه الى مدفن موقت . ويحمل اولاد الميت اذ ذاك عصا الحزن ، رمز قنوطهم . ويتكون القبر الاصلي من عرفة تعلوها كومة من التراب ويتقدمها ممر مكشوف فرشوه بالبلاط . وبعد فترة تقصر او تطول نسبة الى مقام المتوفى يأتون الى هذا القبر بالنعش وقد لفوه بقماش ابيض . ويرافق النعش موكب كبير ينوح افراده ويصرخون وقد سار على رأسهم الساحر ؛ ويأتي المشرف على القبور لينزل الى حنب النعش في الحفرة الاشخاص الذين اعدوهم ليرافقوا المتوفى ويكونون له خدماء اذ يجب ان يحيا الميت في عالمه الجديد حياته العادية مع اسلحته وبلاطه وخدمه . وعند الاسر الفقيرة يستبدلون بدمى من القش او الخشب هؤلاء الضحايا الذين يدفنون احياء والذي يختلف عددهم استناداً الى منزلة الميت . وعندما تنتهي اعمال الدفن يذهب ابن المتوفى الى هيكل الجدود ليضع لوحة ابيه الموقتة ويقدم القربان ، ثم يقيم مأدبة يشترك فيها ممثل عن الميت (شه) . وهكذا تنتهي سلسلة حفلات الدفن .

وان كان الملك ، بصفته نبيلاً ، يحيا حياة خاصة لا تختلف الا قليلا عن حياة افراد رعيته ،

فانه مع هذا ينسق منهجه كما تفرضه واجباته الدينية والسياسية فيقسم وقته بين الذبائح الشهرية والاستقبالات الحافلة واصدار الاحكام القضائية واقامة المآدب . فهو في كل صباح يبحث مع وزرائه شؤون الدولة ، اما الملكة فتقرر امور القصر . ويسبب موت الملك اقامة حفلات اكثر ابهة وشمولاً من وفاة النبيل العادي . وقبل ان يشعر الملك بدنو اجله يعهد الى الحارس الاكبر (وهو واحد من ثلاثة نبلاء يدعى كل منهم دوق) بتسليم الحكم الى الابن البكر من زوجته الشرعية . وبعد موت الملك يعد الحارس الاكبر حفلة الدفن ، ويسجل وصية المتوفى بواسطة الكاتب الاكبر ، ويرشد الامير الوريث في فترة الحزن ثم يعد العدة لحفلة تتويجه . وتتم حفلة التتويج بنقل لوحة اليشب ، رمز السلطة الملكية ، الى الملك الجديد .

مجتمع القرية والمدينة

يقطن الفلاحون في كهوف حفرت في التربة الصفراء ، او في اكواخ من الاغصان اقيمت موقتاً في الاراضي الزراعية ، او اخيراً — في الشتاء — في بيوت جمعت فكونت قرى ودساكر . وتصنع هذه البيوت من الطين ، على شكل مكعب ، وتغطى بالقش . وتحيط بكل بيت حيطان او سياجات تحمي بالوقت نفسه البساتين الصغيرة التي تؤمن العيش اثناء الشتاء . وترتفع القرى غالباً حول منزل سيد البقعة يحميها جميعاً سور ، وارض البيت من التراب المرصوص ، وفيه موقد من حجارة يقترب بعضها من بعض ، وينطلق دخانه من ثقب اعد في وسط السقف . ولا يحتوي المنزل الا على باب ونافذة اعدا على الواجهة الجنوبية . ويتألف الاثاث بنوع خاص من سرير بدائي هو سرير الزوجين . ومع بساطة وحقارة البيت فان كل جزء من اجزائه يرمز الى امر ما ، ويظهرون نحوه الاحترام العميق .

وللقرية التي لها بعض الاهمية هيكل لإله الارض ومدرسة وسوق يتكون من مساحة مربعة يبقون وسطها مبدئياً فارغاً ويتوزع البائعون في الاحياء تبعاً لنوع بضاعتهم ، وتخضع كل فئة لرئيس المحلة الذي يأتمر بأمر مدير الباعة . ويقرر هذا الاخير الاثمان والضرائب التي يسهر على تطبيقها المراقبون ، بينما يعنى رجال الشرطة باستتباب الامن والنظام .

ويسكن في المدينة الرئيسية صاحب الاقطاعة مع نسائه واولاده وخدمه وتابعيه ، وهي تضم ايضاً الكهنة والكتبة والمحاربين . وللقرية مساحة صغيرة (اذ لا يتعدى محيط العاصمة ثلاثة كيلومترات ونصفاً) يحيط بها سور جماعي يشتد او يقل مناعة ويرتفع في وسطه سور اقل شأناً هو سور بيت السيد . ويكوّن هذا المنزل مدينة صغيرة ضمن المدينة الكبيرة ، ويحتوي على عدة فسحات لكل منها باب عظيم وعلى ردهة الاستقبال التي يرتفع بجانبها هيكل الجدود وهيكل إله الارض ، واخيراً على مسكن الزعيم . وحوالي هذا السور الداخلي تبنى بيوت تابعي السيد ابتداء من المستشارين حتى رجال الصناعة . ولم يتطور بعد نظام تنسيق المدن ، هذا النظام الذي لا نعثر عليه الا من خلال المبادىء التقليدية ، لذا نجد نقصاً كبيراً في تنسيق المدن الداخلي . ومع هذا فان المدن الكبيرة هي احسن هندسة يقسمونها احياء احياء وتخترقها شوارع مستقيمة .

obeikandl.com

الجنوبية . ويحتوي هذا السور على فسحة اولى نصب في وسطها حجر على شكل عامود يربطون اليه الذبيحة قبل تقديمها وترتفع على جانبي هذه الفسحة الشرقي والغربي بنايتان لاعداد الخدمات اللازمة . ويشيد هيكل الجدود في شقة السور الشمالية ويكون بابه من الجنوب وهو عبارة عن بناء فسيح تكثر فيه العمد. وله سلمان ، احدهما نحو الشرق والآخر للغرب . وفي الوسط ، في المربع الذي يتسع بين العمد، اعدوا معابد صغيرة يكون عددها خمسا تحوي كل منها على لوحة احد الجدود ، وتوضع لوحة الجد الاكبر في المعبد الذي يقوم في الوسط .

ويعتبرون كل بيت وكل مدرسة امكنة للعبادة . ولا تصبح هذه الابنية المقدسة صالحة للعبادة الا بعد تكريس يلعب فيه دم الذبائح دور السائل المقدس . ويستدعي تشييد كل مدينة وكل بيت اقامة طقس خصوصي اذ ان كل قسم من البناء وكل شكل يعطى للأرض هما من الامور الرمزية لا بل الإلهية التي لها اهمية كبرى . ويقررون بكل دقة الترتيب الذي يتبعونه لتنفيذ الاعمال ، وينتخبون المواد نسبة لدقائقها الرمزية . ويعيرون اهتماماً خاصاً الابواب اذ ان الآلهة التي تسكن فيها هي قديرة جداً ، ويصدق القول هذا عن آلهة الجدران .

الديانة

ان ديانة الصين القديمة تخضع لقوانين ورتب شبيهة بقوانين ورتب المجتمع الذي يغدو لها مثالاً . ان الحق بالاشتراك بأفعال العبادة هو محصور بالنبلاء دون سواهم ، اذ ان افراد طبقة العوام يستفيدون من ثمار العبادة دون ان يشتركوا فيها . ولأعمال العبادة والذبيحة هدف جماعي وليس فردي ، وهي لخير الامة او الجماعة وليس لمنفعة الفرد لذا ينحون باللائمة على من يتوخى منها فائدة شخصية لا بل يعاقبونه اذ يعتبرونه عنصر ضرر يقلل من الخير الذي يرجونه من تلك الافعال..

وللآلهة — ولا حصر لعددها — اهمية اقل شأناً من تطبيق القوانين والتقيد بها تقيداً اعمى ، اذ هي التي تحفظ النظام العام وتجدده ؛ وليست الآلهة على كل كلية القدرة وهي تجسم عادة قوى العالم الطبيعي . ومنها ما يختص باجزاء البيت ، واعمال الحقول ، والاشغال النسائية، والنقابات والحيوانات . ويضيفون الى هذا الزون العظيم ، وان كان جوهره قليل الشأن ، جيش الشياطين والأرواح الشريرة (كوي) والانفس المهملة (لي) . ومع هذه المجموعة الإلهية والشيطانية نجد رب الأعالي ، شنغ — تي ، وإله السماء وسيد الارض ، هيو — تو ، وإله أرض المملكة ، والجدود الملكيين .

ان رب السماء هو سيد الآلهة والانسان ، وملك الموتى ، وصانع الملوك ، والاداري والقاضي الذي لا يعلى عليه . وهو يعيش في قصر شيد في مجموعة بنات نعش ويدير الامور بواسطة مندوبين مجهولين تقل أهميتهم زمن التشاو . ورب الأرض هو قبل كل شيء إله مساحة المملكة . وهو زعيم آلهة أراضي النبلاء ويرأس حفلات تقليد السلطة ؛ وهو يسهر على ازدهار المملكة ، وعلى محاصيل الزرع وجميع الحوادث التي تهم حياة المجتمع . وهم يقدمون له كضحايا أسرى

الحرب (ويبدو بأن هـــذه العادة الدموية أخذت بالتضاؤل منذ القرن السابع ق.م .)، وهو يسود على المذبح الذي يعدونه له في سور القصر الملكي . ولكل إقطاعة ربان للأرض وهما دون هيو - تو رتبة : إله للأملاك الخصوصية وإله للأملاك المشتركة التي تخص الامارة؛ وكانوا يعتبرون الاله الاول مطارداً وميتاً عند تبديل السلالة ، ولكن استمروا مع هذا بتقديم العبادة له .

والجدود الأموات هم حراس الأسرة النبيلة المباشرون . وتكشف لنا حقيقة هـــذا المبدإ عقائد الصين القديمة بمـــا يختص بغايات الانسان الاخيرة : فلكل إنسان عدة أنفس في الوقت ذاته ، وتنفصل إحداها ، الهون ، عن الجسد حالاً بـــعد الموت وتقطع طريقاً مليئاً بالاخطار قبـل ان تصل الى السماء حيث تعطى المركز الذي يحق لها استناداً الى المركز الذي كان يحتله الجسم وهو على قيد الحياة . أما النفس السفلى « البو » ، فتبقى مع الجثة ويخشى ، ان لم تقدم لها الفروض المقررة ، ان تصبح شيطاناً ، كوي ، أو عائـداً يهيم على وجهه يزرع الرعب في أسرة الميت . وان بقيت بو، تذهب لتحيا في عالم جوفي. وتحيا الانفس الهون والبو ، كل منها في عالمها الخاص ، حياة الانسان ذاتها محتفظة برتبها وخاضعة للمرض أيضاً . ولكن لا يهتم التشاو لمصير الأنفس اهتمامهم للعلم الذي يجعل منها جدوداً . وهناك طقس في غاية البساطة يسهل هـــذا التحويل الذي يتم بعد انتهاء فترة الحزن التي تدوم مبدئياً ثلاث سنوات . وفي هـــذه الفترة الانتقالية تكرم لوحة موقتة في غرفة الميت ؛ وبعد انقضاء زمن الحزن تنقل اللوحة الى هيكل الجدود وتستبدل بلوحة نهائية تصنع من خشب الكستنا وعندئذ يقدمون للميت قرابين بصورة مستمرة فيصبح حامي الاسرة . ولكن تقل قدرته مع الزمن ويلقونه أخيراً بين مجموعة الجدود الذين لا تقدم لهم أي تقدمة شخصية .

وهناك اذن والحـالة هذه عالمان إلهي وشيطاني يجب اكتساب عطفهما. وقبل كل شيء، على المرء ان يعرف معرفة دقيقة الآلهة والأرواح التي له علاقة بهـــا بالنسبة الى مركزه الاجتماعي ووظيفته وواجباته . وبما أن الدقة في اقامة الطقوس وتلاوة الصلوات والمراسيم هي أمر في غاية الخطورة وجب من ثم الاستعانة برجال كهنوت علماء يقظين .

وتقوم العبادة بصورة أولية على القرابين والصلوات والرقص ، مع ان التفـــاصيل تختلف باختلاف المكان والإله والظرف . وتقدم طقوس العبادة على أنغـام الموسيقى . وتكون القرابين دموية بصورة شبه مستديمة ويختلف حيوان الذبيحة حسب الظروف ، ويكون لونها كما يفرضه مركز المقدم . وتكثر القرابين البشرية ولكنها تقتصر على بعض الطقوس الخصوصية : فتيـات يقدمن كزوجات للآلهة ، او أسرى الحرب يقدمون لرب الارض والجدود، او سحرة ومشوهون لاستدرار المطر في أوقات الجفاف الشديد ، او بطانة النبيل او الملك لمرافقتها في قبرهما . وقد تذبح هذه القرابين او تحرق او تدفن او تغرق . ويقدمون ايضاً النباتات (الجاورس) او الحرير او الماء او النـار التي تنتج عن انعكاس الشمس على مرآة مقعرة الخ . وللصلاة قوة شبه سحرية

وتثمر ثمارها ان تليت بصورة دقيقة وفي الوقت المناسب وفي الظروف المتوجبة . ويقوم الرقص على حركات مقدسة تمثل الامور التي يريدون ان تحدث، وتعيد الى الذاكرة المغامرات الميثولوجية التي يتوجب على المرء ان يحققها لنجاح العـــالم . والموسيقى هي عربة الآلهة ، فهي التي تجذبهم وتحملهم وتحتفظ بهم ، وتشترك فيها الاصوات والآلات (العود والطبل والقيثارة) . وفي طقوس بعض القرابين كالتي تقدم الى الجدود يوجد وسيط (شي، جثة) ينتخب من أقرباء الميت الذكور يمثل المتوفى الذي ينطق بلسانه ويتقمص فيه لمدة من الزمن . ونجد هذا الطقس في عبـــادة إله الارض الذي يعد كميت ايضاً .

ويتطلب تقديم الذبيحة بطبيعة الحال دقة ونقاوة في الطقوس ليس فقط بما يختص بالأدوات والتقادم ولكن ايضاً بمقدمي القرابين والاشخاص الحاضرين .. وينال الجميع هذه النقاوة بطقوس تطهيرية وممارسة فترات تقشف تطول او تقصر .

وتقسم السنة فترات أعياد وطقوس يتعلق بعضها بالمواسم الزراعية والاخرى بعبادة الجدود . وتضاف الى هذه الأعياد الموسمية الاحتفالات الطارئة وسائر احتفالات العبادة العادية التي توحي بهـــا الحوادث اليومية او الظرفية (الصيد والحرب ومراحل الفتوة الخ) . ولكل منها عبادة معينة ومقررة بكل دقـــة وقد يغدو وبالاً اقامتها في ظروف غير التي حددت لها . ولا يلحق هذا الضرر مباشرة بالفرد ، ولكن بتعاقب الفصول وبحسن سير النظام العالمي ، لذا غدا القيام بها فرضاً لازباً على الذين نيط بهم السهر على النظام الكوني ، اعني النبلاء وبالدرجة الاولى الملك . ويحدث موت الملك وحده بعض البلبلة في سلسلة الاعياد العادية اذ تتوقف بعضها أثناء فترة الحداد .

ان الملك هو دون شك مقدم القرابين الاول. فعليه وعلى فضائله يستند تنظيم السنة الزراعية. فهو يبدأ الربيع بتقديم ذبيحة كبرى لرب السماء ، ثم يقوم بأول عمل فلاحة فيشق ثلاثة أثلام في حقل مقدس ، ويحذو حذوه في هذا العمل الرمزي جميع اصحاب الارض النبـــلاء في كافة أرجاء المملكة . ويفتتح الملك ايضاً موسم الزواج ، ثم تقيم كل قرية حفلات مماثلة . ويجددون النـــار ويستعيدون من جديد النشاط في مختلف مرافق الاعمال . وفي الصيف تقدم القرابين الى آلهة الجبال والانهار والينابيع والامطار ، ثم تأتي أعياد الحصاد واختتام الحيـــاة الزراعية . وتبتدىء فـترة الشتاء بذبيحة كبرى لإله السماء بواسطة جد السلالة ، الملك «ون»، وتواً أثر ذلك يذهب الملك الى الضـاحية الشمالية لاستقبال الشتاء واصدار الأمر بحجز الفلاحين في القرى . ثم يأتي دور القرابين الملكية لرب الارض والجدود الى ان يحين أخيراً عيد الحصـاد ، وهو من أهم أعياد السنة . وتعاد حلقات هذه الحفلات والأعيـاد في الربيع دون ان يتبعوا التقويم الرسمي الذي يحمل في طياته شوائب فادحة بل حلول الفصول الطبيعية .

وتتخلل هذه المواسم أعياد مقررة يحددون أوقاتها ايضاً تبعاً لحلول الفصول دون اعتبـــار

التقلبات الرسمية ، وهي تتعلق بصورة أولية بالجدود الذين تقدم لهم مع هذا عبادة يومية . ومن هذه الاعيـــاد ما يقام مرة كل ثلاثة أشهر او كل سنة او كل خمس سنوات ، وأشهرها الذبيحة الملكية التي يقدمونها للجدود كافة بما فيهم الجد الاول . وبهذه المناسبة تقام وليمة جمـــاعية وحفلات رقص صاخبة يشترك فيها الملك وأولاد الأسر الكبرى الذين يقبلون في البطانة الملكية.

وهكذا فالحياة كلها في الصين القديمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأفعـــال دينية حددوا جميع دقائقها بعناية كلية، وبدونها لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً منظماً ومفيداً . والديانة، وقد أسست على الامور الطقسية ، هي قبل كل شيء ديانة جماعية ترجى منها المنفعة وتوافق كلياً تقسيم المجتمع الى طبقات وفئات. ولكن نلحظ تطوراً دقيقاً يظهر في منتصف دور النشاو سيقود الديانة القديمة الى حالة جمود وتنظيم عقيم يستبيح معها الصينيون الذين وقفوا على مبادىء الفلاسفة ورجـــال الأدب بعض التحرر .

الفلسفـــة

تشتد الحركة الفكرية منذ أواخر القرن السادس ق . م . اذ يظهر في هـذه الحقبة الرجل الذي لعب أعظم الادوار في الحياة الصينية العقلية : كونفوشيوس (كونغ كيو الملقب بتشونغ – ني) ويميل رجال الأدب الأكثر تحرراً نحو الشك والارتياب في كل شيء حتى نفي وجود الآلهـــة والارواح واستنكار بربرية بعض طقوس العبادة كتقدمة الذبائح البشرية . ويسعى كونفوشيوس في تعاليمه للإبقاء على التقاليد مستنداً الى كتب العصور القديمة والى طقوس وسياسة العهد المنقرض . لذا فإن تعاليمه الروحية هي موجهة أساساً الى الطبقة الارستوقراطية وتهدف الى حسن قيادة وحكم الشعب استناداً الى الدرس وترويض النفس الروحي ، هـــذا الترويض الذي لن يعود بالنفع على صاحبه بـل عكس ذلك على الآخرين فيستتب اذ ذاك حسن التفاهم الذي هو الدعامة الكبرى للنظام العام . والوسائل الكفيلة بالوصول الى هذه الغـــاية هي طقسية ، كما كانت في عهد التنظيم الديني ، وتساعد الفرد ليصبح إنساناً أسمى ، وذلـــك لخير المجموعة ، ولخير الشعب بكامله . ويستند كونفوشيوس ببراهينه وإثباتاته وأمثلته الى ضرورة التشبه بقديسي العهود القديمة والوصول الى فضائلهم ، اذ هذا هو الشرط الاساسي لحفظ النظـام والتوازن العالمين .

وقـــد أنجبت تعاليم كونفوشيوس فيلسوفاً عظيماً هو موتي ، أو بالاحرى موتسو ، الذي عاش في القرن الخامس . وتصفر لديه المعطيات الميثولوجية أمام الاستنتاجات الفلسفية أو تفقد التقاليد الكثير من امتيازاتها اذ يكره تنظيم الطقوس المادي الذي لا روح فيه . واستناداً الى تعاليمه تفقد الديانة صفتها الجماعية والاجتماعية لتصبح حقاً ديانة الفرد اذ لا يؤسس تفكيره على نفوذ وسلطة قديسي العهود القديمة بل على قوة القياس الفلسفي . ان مبادىء محبة الغير التي نادى بها كونفوشيوس والتي كانت غايتها خير إحدى الجماعات أصبحت مع موتسو تعاليم المحبة الجامعة الشاملة حيث تتساوى كل الفئات الاجتماعية وطبقـــات الأفراد . وأساس تعاليمه هو الخضوع

لارادة رب السماء وعبـــادة الآلهة . وتوافق هذه النظرية ، وان كانت ثورية في بعض نواحيها ، التغييرات الجذرية التي شهدها المجتمع في ذاك العصر، كما أنها تتناغم مع الوثنية الروحية والحنو على الغير الذي كان يغذيها في الهند تلامذة شكيموني،والتي لم تعرفها الصين إلا في وقت لاحق جداً .

وبجانب جهود هذين المعلمين الكبيرين ، فقد قامت مدرسة ميتافيزيقية على مبادىء السحرة الأقدمين . وهم يقارنون بالعالم الحسي عالماً وهمياً ويؤكدون مبدئياً بأن الأساليب السحرية تؤثر على أحدهما بواسطة الآخر. وهم يلجأون الى الين واليانغ لتفسير تتابع السنة الزراعية وكل المظاهر التي تنتج عنه . ولا تتعدى هذه النظرية في أول الامر محيط فئة مختـــارة من النبلاء ولكن منذ أواخر القرن الخامس ق. م. يعتنقها كل الفلاسفة ، ثم تتسرب رويداً رويداً الى فئـــات أقل ثقافة ، وتستمر الى يومنا هذا محوراً للفكرة الصينية .

وهكذا تتكون رويداً رويداً تفاسير دينية وفلسفية جديدة تؤلف وحدة منذ القرن الرابع قبـــل العهد المسيحي ، عندما تحدث العوامل الحضارية المتوسطية تحويراً في الميثولوجيا وتأتي بمعلومات فلكية جديـــدة مختلفة . ويتآلف مع الزمن هذان العاملان الطقسي والفلسفي دون ان يظهر بينهما تناقض ويكونان عقلية لا تزال الصين تحتضنها الى عصرنا الحاضر .

الفـــن

ليس لدينـــا عن أبنية ذاك العصر إلا معلومات أدبية اذ ان المواد المستعملة – الطين والخشب والآجر والقش – هي بحد ذاتها مواد عرضة للتلف . ولا يبدو بأنه كان للأبنية التي خصصوها للموتى حظ أوفر بالديمومة . ونعرف معرفة أكـــثر وضوحاً وثبوتاً الادوات التي استعملوها في إقامة العبـــادة ومختلف الطقوس ، وهي تتألف ، كما كان الأمر في العصر السابق ، من أوان وأدوات نحاسية وأسلحة وأشياء رمزية من اليشب. ولا نجد إلا أدوات قليلة جديدة تمثل الانسان . ويتكون الاطار بصورة مستمرة تقريباً من عناصر حيوانية عبروا عنها بفن خصوصي وشملت حيوانات ميثولوجية وهمية نظروا اليها وجهاً لوجه أو من جوانبها . وقد نقشوا على سطح قطعة النحاس بكاملها نقشاً دقيقاً جداً، تبدو عليها الحيوانات بصورة نافرة بينما تتشابك على سطح المعدن خطوط ملتوية . اننا نجهل الرمز الذي يهدف اليه هذا النقش ، ولكن تساعدنا أشكال الأواني على تنظيمها فئات فئات محددة العالم ، توافق كل منها الطقس الذي صنعت لأجله . ولا جدل في حقيقة صفة هذه الاواني المقدسة . وكان الملك نفسه يحترمها ومنها الآلات الشهيرة ذات الثلاثة أرجل التي حفظت في باب من أبواب العاصمة . ويصعب علينا ان نميز بوضوح مراحل هذا التطور الفني للنحاس منذ عهد الشانغ حتى أواخر زمن التشاو . ولكننا نستطيـــع مع هـــذا ان نلاحظ تطوراً فنياً بطيئاً تصبح تفاصيله رويداً رويداً جامدة لا حياة فيها ، ثم تتشابك وتتضخم الى ان تصبح في عهد الممالك المتقاتلة أمراً بسيطاً جداً فيه عوامل تزيين أكثر دقة وبساطة – وهي تظهر فعلاً ذوقاً أشد رسوخاً وأعمق دقـــة ولكنه ذوق يفقد في الوقت نفسه التعبير الصاخب والقلق الذي كان سائداً أيام الشانغ والتشاو .